الدكتور إبراهيم عوض

سورة يوسف

دراسة أسلوبية فنية مقارنة

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

سورة يوسف

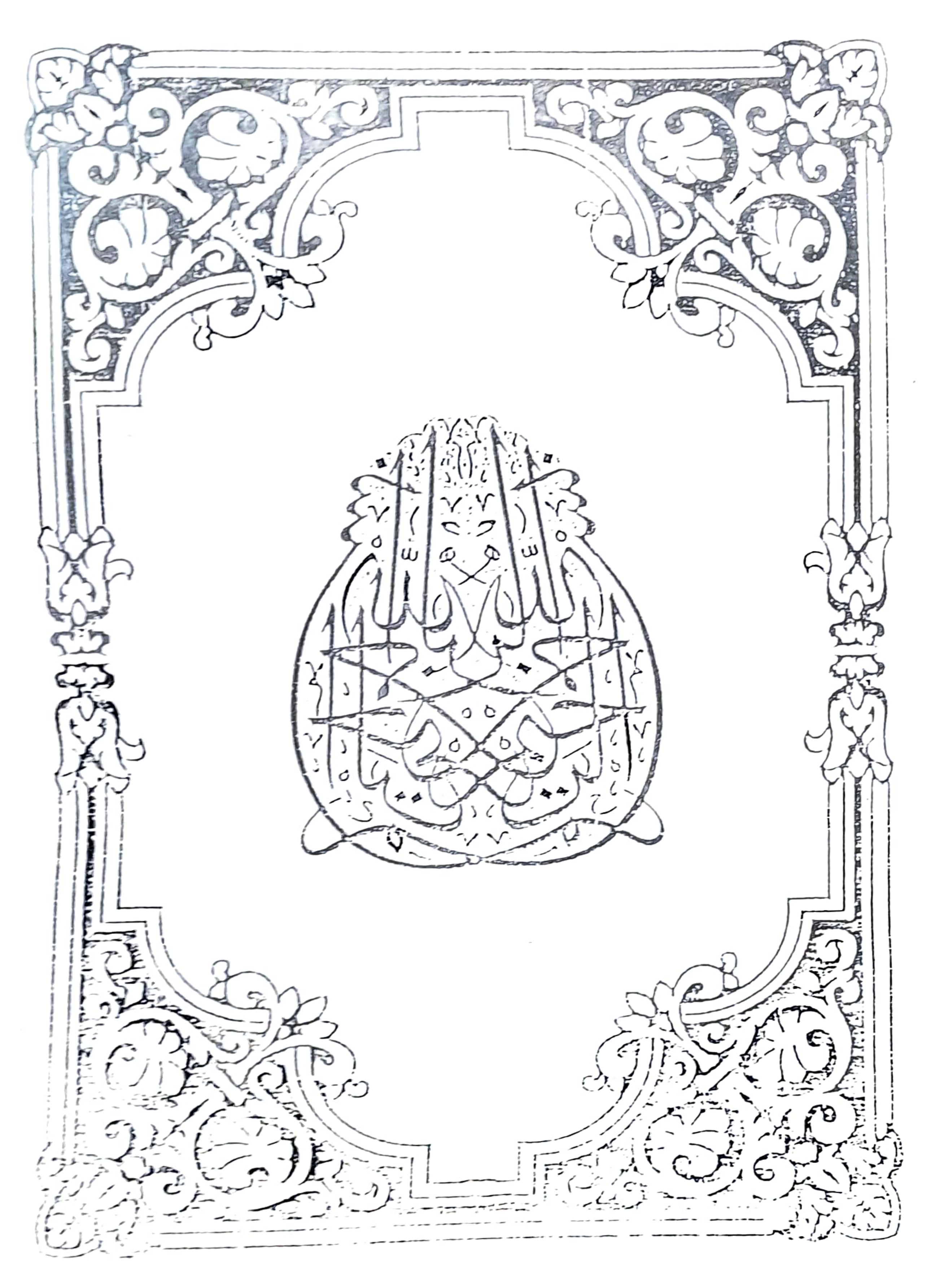
دراسة أسلوبية فنية مقارنة

الدكتور إبراهيم عوض

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار النهضة العربية

٣٢ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة



رقم الإيداع ٢٦٠٥/٩٦

الترقيم الدولى ٧ - ٠٢٣٠ - ١٠ - ٩٧٧

المقدمة

فى الصفحات التالية دراسة لسورة « يوسف » من عدة نواح : من ناحية مكّيتها والسمات الأسلوبية التى تؤكد هذا وما قيل عن بعض آياتها من أنهـا مدنيـة ، ورأيى فى ذلك. ومن ناحية الخصائص الموضوعية والأسلوبية التى تميّزها عن غيرها . ومن ناحية آراء بعض المفسرين حول بعض الآيات والقضايا مما أرى أن غيره هو الصواب ، مستندا فى ذلك إلى تفسير القرآن بعضه ببعض وإلى تحليل أسلوبه . وأخيرًا من ناحية البناء القصصى فى السورة والمقارنة بين طريقتى القصص القرآنى والقصص النبوى بوجه عام.

وقد استطعتُ بفضل الله فى هذه الدراسة أن أرصد ما يقرب من أربعين سمة أسلوبية تميّز الوحى المكى وأن أُثبت عن طريق التحليل الأسلوبى أن الآيات الأربع التى قيل بمدنيتها فى سورة « يوسف » هى آيات مكية كسائر السورة ، معضّدا بذلك رأى الأستاذ سيد قطب . وقد استخرجت أيضا الخصائص التى تنفرد بها السورة عن غيرها من السور ، كما تعرضت لعدد من القضايا المتصلة بحياة يوسف عليه السلام مما اختلف حوله المفسرون ، كقضية همّه بامرأة العزيز ، وهل أصبح ملكا على مصر ، فعرضت الآراء المختلفة فيها ثم أدليتُ بدلوى على أساس من

استنطاق النص القرآني في المواضع المختلفة التي تناول فيها تلك القضايا .
كذلك فقد استخلصت طائفة من الملامح التي تميز طريقة القص القرآني
عن طريقة القص عند البشر ، وخاصة القصص النبوي .

وأرجو أن يكون في هذه الفصول شيء جديد يمكن أن يكون ذا
فائدة في دراسة أسلوب القرآن وخاصة فيما يتعلق برصد الملامح المميزة
لكل من الوحي المكي والوحي المدني ، وكذلك في دراسة طريقته المتفردة
في قص القصص . والله ولي التوفيق .

مكية السورة وملابسات نزولها

العلماء على أن سورة « يوسف » قرآن مكيّ ، وإن كان بعضهم يستثنى من ذلك ثلاث آيات أو أربعا . وهذه الآيات هى الثلاث الأولى ، والآية السابعة (١) . وقد ردّ هذا الاستثناء بقوةٍ عددٌ من العلماء منهم السيوطى ، الذى قال إنه لايُلْتَفَتُ إليه (٢) ، وكذلك الألوسى ، الذى ردّد عبارة السيوطى ثم أضاف قائلاً : « وما اعتمدناه كغيرنا هو الثابت عن الحبر » (٣) ، وأيضا الشيخ ابن عاشور (٤) .

وممن رفض أيضا مدنية الآيات الأربع المذكورة سيد قطب . وحجَّته أن الآيات الثلاث الأولى « هى مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء فى قصة يوسف عليه السلام » ، وكأنه يرى أن القصة لا يمكن أن تبتدىء بقوله تعالى فى الآية الرابعة : « إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتُهم لى ساجدين » . وهذه ملاحظة سديدة ، فلم نعهد أن كلاما ، قصصيًا أو غيره ، يبدأ بـ « إذ » هكذا مباشرة ، إذ لابدّ لهذا الظرف من شىء سابق يرتبط به ، وإلا كان هو وما بعده من كلام معلقا فى الفضاء . وكذلك يقول سيد قطب إن « الأحرف المقطعة (الر) وتقرير أنها من الكتاب المبين ، ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآنا عربيا هو كذلك من جوّ القرآن

المكى » . وهذا أيضا ردّ قوى . وإن الإنسان لايدرى كيف فات على من قالوا بمدنية الآية الأولى على الأقل أن علماء القرآن فى تقسيمهم للمكى والمدنى منه قد انتهوا بالاستقراء إلى عدة قواعد لتمييز هذا من ذاك ، ومن هذه القواعد أن السور التى تبدأ بحروف مقطعة هى كلها سور مكية ، ما عدا البقرة وآل عمران (٥) . ولا يُعْقَل بطبيعة الحال أن تكون السورة التى تُفْتَتَح بتلك الأحرف مكية والآية التى تتضمن هذه الأحرف هى نفسها مدنية .

ولقد استقرأت الآيات التى وُصف فيها القرآن بأنه « كتاب مبين » فوجدتُ أنه بالنسبة لأوائل السُّوَر لم يرد هذا الوصف إلا فى الوحى المكىّ . وكان ذلك فى مواضع خمسة غير أول سورة « يوسف » ، وهى أوائل سُوَر « الشعراء » و « النمل » و « القصص » و « الزخرف » و « الدخان » ، علاوة على أول سورة « الحجر » ، الذى جاء فيه قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » . أما فى داخل السُّوَر فقد وُصف القرآن بذلك فى آية مدنية من سورة مدنية هى الآية الخامسة عشرة من سورة « المائدة » . ومن هنا فإن ملاحظة سيد قطب هى ملاحظة صحيحة تماما ، ولكن على أن نقصرها على أوائل السُّوَر .

وكذلك تتبعت الآيات التى ذُكر فيها أن القرآن « عربى » ، سواء

ذُكرت كلمة « قرآن » بصريح اللفظ أوْ لا ، فوجدتْ أن ذلك لم يقع إلا فى القرآن المكى ، وكان ذلك فى عشرة مواضع هى : يوسف / ٢ ، والرعد / ٣٧ (٦) ، والنحل / ١٠٣ ، وطه / ١١٣ ، والشعراء / ١٩٥ ، والزمر / ٢٨ ، وفُصّلتْ / ٣ ، ٤٤ ، والشورى / ٧ ، والزخرف / ٣ . أى أن ملاحظة سيد قطب فيما يخص هذه النقطة هى أيضا ملاحظة سليمة مائة فى المائة .

ويمضى الأستاذ سيد قطب قائلا عن الآيات الثلاث الأولى من السورة إنها تتناسق مع التعقيب على القصة فى نهايتها ، حيث يقول الله تعالى : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنتَ لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (٧) . وهو يقصد أن الآية الثالثة من السورة تقرر أن رسول اللّه كان ، قبل أن ينزل الوحى بسورة يوسف ، من الغافلين عنها وعن أحداثها وشخصياتها وما جرى لهم وما قال بعضهم لبعض . وهو ما تشير إليه الآية المذكورة توًا ، إذ تقول إن هذه القصة من أنباء الغيب الذى لم يكن يعرفه الرسول عليه السلام ... إلخ .

أما بالنسبة للآية السابعة فإن سيد قطب يؤكد أن السياق لايستقيم بدونها أصلا ، ولايتأتى أن تكون السورة قد نزلت فى مكة وهى ليست من سياقها ثم أضيفت إليها فى المدينة . ذلك أن فى الآية الثامنة ضميرا يعود على يوسف وإخوته فى هذه الآية السابعة بحيث لا يستقيم نزول الآية

الثامنة دون أن تكون معها الآية السابقة . وهذا نصها (٨) : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة . إن أبانا لفى ضلال مبين » . مما يقطع بأن الآيتين نزلتا معا فى سياق السورة الموصول » (٩) . والضمير الذى يلمح إليه الكاتب هو « الواو » فى « قالوا » . إذ لو لم تكن الآية السابعة التى فيها ذكر يوسف وإخوته قد نزلت مع الآية الثامنة (التى فيها الفعل « قالوا ») لما كان للضمير المذكور مايعود عليه .

إذن فالسورة مكية كلها من مطلعها إلى مختتمها لا يشذ عن ذلك منها شىء . وقد قمتُ مع ذلك باستخلاص السمات الأسلوبية المكية فيها خدمة لعلم المكى والمدنىّ ، الذى لم يبرز القدماء من ملامحه الأسلوبية إلا « الحروف المقطعة » (وقد سبق إيراد ما قالوه فيها) ، ولفظة « كلا » ، التى وجدوا أنها لا تأتى إلا فى المكىّ وأنها لاتوجد إلا فى نصف القرآن الأخير ، وكذلك عبارة « يا أيها الناس » ، التى تدل على أن السورة التى وردت فيها هى سورة مكية إذا لم تكن فيها عبارة « يا أيها الذين آمنوا » (١٠). وقد سبق ، فى كتابىَ عن « سورة الرعد » وسورة « طه » ، أن استخرجت نيفا وثلاثين سمة أسلوبية أغلبيتها الساحقة مكية صرفة ، والباقى يغلب وروده فى الوحى المكى . وهأنذا أضيف هنا عددا آخر من الخصائص الأسلوبية المكية إغناء لعلم المكى

والمدنىّ ، حتى لا يكون كل ما يقوم عليه هو هذه السمات القليلة التى رصدها علماؤنا القدامى . وقد يجد الدارسون فى هذه الخصائص ، إذا ما كملت وغطّت القرآن أجمع ، أسرارًا تخفى علينا الآن ، مما من شأنه أن يخدم الدراسات القرآنية والأسلوبية .

وهذه هى السمات التى استطعت أن أرصدها أثناء دراستى لسورة « يوسف » ، بالإضافة إلى ماذكرته قبل قليل :

النداء بـ « يا بُنَىّ » ورد فى القرآن الكريم ست مرات ، وكلها فى الوحى الذى نزل بمكة : « يا بُنَىَّ ، اركب معنا » (هود / ٤٢) ، « يا بُنَىَّ ، لاتقصص رؤياك على إخوتك » (يوسف / ٥) ، « يا بُنَىَّ ، لاتشرك بالله » (لقمان / ١٣) ، « يا بُنَىّ ، إنها إن تك مثقال حبة من خردل ... » (لقمان / ١٦) ، « يا بُنَىَّ ، أقم الصلاة » (لقمان / ١٧) ، « يا بُنَىَّ ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » (الصافات / ١٠٢) .

كلمة « رؤيا » جاءت سبع مرات كلها مكية : « لا تقصص رؤياك على إخوتك » (يوسف / ٥) ، « يا أيها الملأ ، أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تَعْبُرُون » (يوسف / ٤٣) ، « هذا تأويل رؤياى من قبل » (يوسف / ١٠٠) ، « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » (الإسراء / ٦٠) ، « قد صدّقْتَ الرؤيا » (الصافات / ١٠٥) ،

« لقد صدَق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق » (الفتح / ٢٧) .

الألفاظ التى من مادة « ك ى د » قد أتت فى القرآن خمسًا وثلاثين مرة ، أغلبتيها الساحقة (٣١ مرة) مكية : الأعراف / ١٨٣ ، ١٩٥ ، وهـود / ٥٥ ، ويوسف / ٥ (مرتين) ، ٢٨ (مرتين) ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٧٦ ، وطـه / ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٩ ، والأنبياء / ٥٧ ، ٧٠ ، والصافـات / ٩٨ ، وغافـر / ٢٥ ، ٣٧ ، والطـور / ٤٢ (مرتين) ، ٤٦ ، والقلم / ٤٥ ، والمرسلات / ٣٩ (مرتين) ، والطارق / ١٥ (مرتين) ، ١٦ (مرتيـن) ، والفيـل / ٢ . والباقى (٤ مرات فقط) فى المدنى : آل عمران / ١٢٠ ، و النساء / ٧٦ ، والأنفال / ١٨ ، والحج / ١٥ .

عبارة « قال قائل منهم » هى من خصائص القرآن المكى . وقد وردت ثلاث مرات : « قال قائل منهم : لاتقتلوا يوسف » (يوسف / ١٠) ، « قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ » (الكهف / ١٩) ، « قال قائل منهم : « إنى كان لى قريـن » (الصافـات / ٥١) . بل إن كلمة « قائل (مفردةً) لم تأت إلا فى الوحى المكى . وقد تكررت فيه أربع مرات : الثـلاث التـى سبقـت لتوهـا ، والرابعة فى الآية ١٠٠ من سورة « المؤمنون » .

الأمر مـن « أرسـل » ورد فـى القـرآن تسـع مرات كلها مكيـة :

« فَأَرْسِلْ معى بنى إسرائيل » (الأعراف / ١٠٥) ، « وأرْسِلْ فى المدائن حاشرين » (الأعراف / ١١١) ، « أرْسِلْه معنا غداً » (يوسف / ١٢) ، « أنا أنبّئكم بتأويله فأرْسِلونِ » (يوسف / ٤٥) ، « فأرْسِلْ معنا أخانا نَكْتَلْ » (يوسف / ٦٣) ، « فأرْسِلْ معنا بنى إسرائيل » (طه / ٤٧) ، « فأرْسِلْ إلى هارون (الشعراء / ١٣) ، « أرْسِلْ معنا بنى إسرائيل » (الشعراء / ١٧) ، « فأرْسِلْه معِىَ رِدْءاً يصدقنى » (القصص / ٣٤) .

الفعل « أَجْمَعَ » لم يجىء إلاّ فى القرآن الذى نزل بمكة . وقد تكرر أربع مرات : مرتين فى الماضى ، ومرتين بصيغة الأمر : « وأجْمَعوا أن يجعلوه في غيابة الجب » (يوسف / ١٥) ، « إذ أجْمَعوا أمرهم » (يوسف / ١٠٢) ، « فأجْمِعوا أمركم وشركاءكم » (يوسف / ٧١) ، « فأجْمِعوا كيدكم » (طه / ٦٤) .

الفعل « عسى » ، إذا ورد على لسان أحد من البشر لا فى كلام الله المباشر ، لا وجود له إلا فى الوحى المكىّ ، ما عدا آية سورة « البقرة » ، التى تنفرد دون سائر الشواهد بأن هذا الفعل قد ورد فيها ضمن جملة استفهامية ، على حين أن كل الجمل فى الشواهد الأخرى هى جمل خبرية ، وأنه قد وَلِيَه فيها ضمير ، بينما قد وَلِيَهُ فى بقية الشواهد اسم ظاهر . وهذه مواضع الاستعمال المذكور للفعل

« عسى » : الأعراف / ١٢٩ ، ويوسف / ٢١ ، ٨٣ ، والإسراء / ٨ ، والكهف / ٢٤ ، ٤٠ ، ومريم / ٤٨ ، والنمل / ٧٢ ، والقصص / ٩ ، ٢٢ ، والقلم / ٣٢ ، علاوة على الآية ٢٤٦ من « البقرة » ، ونصها : « قال : هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ » .

الفعل « راوَدَ » ليس له وجود إلا فى القرآن المكى . وقد أتى ثمانى مرات سبع منها فى « يوسف » وحدها (الآيات / ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٥١ (مرتين) ، ٦١) ، والثامنة فى قوله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيفه » (القمر / ٣٧) .

كلمة « صاحب » ، مفردة أو مثنّاة ومضافة ، وردت فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة كلها فى الوحى المكى ، ما عدا الآية ٤٠ من سورة « التوبة » . وها هى ذى مواضعها فى القرآن المكى : « ما بصاحبهم من جنّة » (الأعراف / ١٨٤) ، « إذ يقول لصاحبه : لاتحزن » (التوبة / ٤٠) ، « فقال لصاحبه » (الكهف / ٣٤) ، « قال له صاحبه » (الكهف / ٣٧) ، « مابصاحبكم من جنّة » (سبأ / ٤٦) ، « ما ضلّ صاحبكم وماغوى » (النجم / ٢) ، « فنادوا صاحبهم » (القمر / ٢٩) ، « ولاتكن كصاحب الحوت » (القلم / ٤٨) ، (١١) ، « وما صاحبكم بمجنون » (التكوير / ٢٢) ، « يا صاحبى السّجْن » (يوسف / ٣٩ ، ٤٠) .

كلمة « أبواب » تكررت فى القرآن الكريم فى خمسة عشر موضعًا كلها من الوحى المكى ما عدا الآية ١٨٩ من سورة « البقرة » : « وأْتوا البيوت من أبوابها » (البقرة / ١٨٩) ، « أبواب كل شىء » (الأنعام / ٤٤) ، « أبواب السماء » (الأعراف / ٤٠) ، « غلّقت الأبواب » (يوسف / ٢٣) ، « أبواب متفرقة » (يوسف / ٦٧) ، « سبعة أبواب » (الحجر / ٤٤) ، « أبواب جهنم » (النحل / ٢٩) ، « مُفتّحة لهم الأبواب » (ص / ٥٠) ، « وفُتحت أبوابها » (الزمر / ٧١) ، « أبواب جهنم » (الزمر / ٧٢) ، « فُتِحَتْ أبوابها » (الزمر / ٧٣) ، « أبواب جهنم » (غافر / ٧٦) ، « أبواب السماء » (القمر / ١١) ، « ولبيوتهم أبوابًا وسُرُرًا » (الزخرف / ٣٤) ، « وفُتِحت السماء فكانت أبوابا » (النبأ /١٩) .

لفظة « عزيز » ، موصوفا بها غير الله ، وردت فى إحدى عشرة آية كلها من الوحى المكى ، ما عدا آية سورة « الفتح » : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم » (التوبة / ١٢٨) ، « ولولا رهطك لرجمناك . وما أنت علينا بعزيز » (هود / ٩١) ، « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » (يوسف / ٣٠) ، « قالت امرأة العزيز » (يوسف / ٥١) ، « يا أيها العزيز ، إن له أبًا شيخا كبيرا » (يوسف / ٧٨) ، « يا أيها العزيز ، مسّنا وأهلنا الضُرّ » (يوسف /

٨٨) ، « ومـا ذلـك علـى الله بعزيز » (إبراهيم / ٢٠ ، وفاطر / ١٧) ، « وإنه لكتاب عزيز » (فُصِّلَتْ / ٤١) ، « ذُقْ ، إنك أنت العزيـز الكريـم » (الدخـان / ٤٩) . وتبقـى الآية الثالثة من سورة « الفتح » ، وهى : « ينصرك الله نصرا عزيزا » . والملاحظ أنها تشذ عن سائر الشواهد فى أنها هى وحدها المنصوبة ، أما عشر الآيات الأخريات فهى إمّا مرفوعة وإما مجرورة . أى أن استعمال تلك الكلمة على هذا النحو فى حالتى الرفع والجر لم ترد إلا فى الوحى المكى .

عبارة « أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » تكررت فى القرآن ثلاث مرات : الأعراف / ٧١ ، ويوسف / ٤٠ ، والنجم / ٢٣ ، وكلها من الوحى المكى .

لفظة « سلطان » ، مرفوعةً أو مجرورةً ، جاءت فى أربعة وعشرين موضعًا فى القرآن كلها مكية ، وهى : الأعراف / ٧١ ، ويونس / ٦٨ ، وهـود / ٩٦ ، ويوسـف / ٤٠ ، وإبراهيـم / ١٠ ، ١١ ، ٢٢ ، والحجر / ٤٢ ، والنحل / ٩٩ ، والإسراء / ٦٥ ، والكهف / ١٥ ، والمؤمنـون / ٤٥ ، والنمل / ٢١ ، وسبأ / ٢١ ، والصافات / ٣٠ ، ١٥٦ ، وغافر / ٢٣ ، ٣٥ ، ٨٦ ، والدخان / ١٩ ، والذاريات / ٣٨ ، والطور / ٣٨ ، والنجم / ٢٣ ، والرحمن / ٢٣ (١٢) .

كل الألفاظ التى من مادة « س م ن » لم ترد إلا فى القرآن الذى

نـزل بمكة ، وذلك فى أربع آيات : « سبع بقرات سِمَان » (يوسف / ٤٣ ، ٤٦) ، « فجاء بعجل سمين » (الذاريات / ٢٦) ، « لايُسْمِنُ ولايُغْنِى من جوع » (الغاشية / ٧) .

لفظة الـ « مَلأ » تكررت ٢٩ مرة فى الوحى المكى : الأعراف / ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ويونس / ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٨ ، وهـود / ٢٧ ، ٣٨ ، ٩٧ ، ويوسـف / ٤٣ ، والمؤمنون / ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٦ ، والشعراء / ٣٤ ، والنمـل / ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٨ ، والقصص / ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، والصافات / ٨ ، وص / ٦ ، ٦٩ ، والزخرف / ٤٦ . أما فى الوحى المدنى فلم ترد إلا مرة واحدة ، وذلك فى الآية ٢٤٦ فى سورة « البقرة » .

كلمة « أحلام » جاءت فى القرآن أربع مرات ، وكلها من الوحى المكى : يوسف / ٤٤ (مرتين) ، والأنبياء / ٥ ، والطور / ٣٢ .

لفظ « الرحمة » ، مضافًا إلى ضمير المتكلم ، لا يعرفه إلا الوحى المكىّ ، الـذى تكـرر فيه سبع مرات : « ورحمتـى وسعت كلَّ شىء » (الأعـراف / ١٥٦) ، « نُصيـب برحمتنـا من نشاء » (يوسف / ٥٦) ، « ووهبنا لهم من رحمتنا » (مريم / ٥٠) ، « ووهبنا له من رحمتنـا أخـاه هـارون نبيـا » (مريم / ٥٣) ، « وأدخلناه فى رحمتنا » (الأنبياء / ٧٥) ، « وأدخلناهم فى رحمتنا » (الأنبياء /

٨٦) ، « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى » (العنكبوت / ٢٣) .

مشتقات مادة « ك ى ل » أتت فى القرآن ست عشرة مرة ، وجميعها مكية ما عدا آية « الأنعام » ، التى يقال إنها مدنية : الأنعام / ١٥٢ ، والأعراف / ٨ ، وهود / ٨٤ ، ٨٥ ، ويوسف / ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ (مرتين) ، ٦٥ (مرتين) ، ٨٨ ، والإسراء / ٣٥ (مرتين) ، والشعراء / ١٨١ ، والمطففين / ٢ ، ٣ .

الكلمات المشتقة من « ر ح ل » جاءت فى القرآن أربع مرات ، وكلها من المكى : يوسف / ٦٢ ، ٧٠ ، ٧٥ ، وقريش / ٢ .

ومثلها مشتقات « ف ق د » ، التى وردت فى القرآن ٣ مرات : يوسف ٧١ / ٧٢ ، والنمل / ٢٠ .

عبارة « عليه توكلت » وردت فى المواضع التالية : التوبة / ١٢٩ ، وهود / ٨٨ ، ويوسف / ٦٧ ، والرعد / ٣٠ ، والشورى / ١٠ . وكلها من المكىّ .

كلمة « الراحمين » غير معروفة إلا فى الوحى المكىّ : الأعراف / ١٥١ ، ويوسف / ٦٤ ، ٩٢ ، والأنبياء / ٨٣ ، والمؤمنون / ١٠٩ ، ١١٨ . والملاحظ أنها لم ترد إلاّ مضافًا إليه ومضافها اسم تفضيل : « أرحم الراحمين » (فى الأربعة المواضع الأولى) ، و « خير

الراحمين » (فى الموضعين الأخيرين) .

كلمتا « شيخ / شيوخ » وردتا فى القرآن أربع مرات : « وهذا بعلى شيخا » (هود / ٧٢) ، « إن له أبا شيخا كبيرا » (يوسف / ٧٨) ، « وأبونا شيخ كبير » (القصص / ٢٣) ، « « ثم لتكونوا شيوخا » (غافر / ٦٧) . وكلها مكية .

الفعل « تولّى » بصيغة الماضى ومعه حرف الجر « عن » ورد فى المواضع التالية ، وجميعها مكية : « فتولّى عنهم » (الأعراف / ٧٩ ، ٩٣) ، « وتولّى عنهم » (يوسف / ٨٤) ، « فتولَّوا عنه مُدْبِرين » (الصافات / ٩٠) ، « ثم تولَّوا عنه » (الدخان / ١٤) ، « فأعْرِضْ عمن تولى عن ذكرنا » (النجم / ٢٩) .

كلمة « أجمعين » تكررت فى ٢٣ موضعًا فى القرآن ، أغلبيتها الكبيرة (٢١ مرة) فى الوحى المكىّ : الأنعام / ١٤٩ ، والأعراف / ١٨ ، ١٢٤ ، وهود / ١١٩ ، ويوسف / ٩٣ ، والحجر / ٣٩ ، ٤٣ ، ٥٩ ، ٩٢ ، والنحل / ٩ ، والأنبياء / ٧٧ ، والشعراء / ٤٩ ، ٦٥ ، ١٧٠ ، والنمل / ٥١ ، والسجدة / ١٣ ، والصافات / ١٣٤ ، وص / ٨٢ ، ٨٥ ، والزخرف / ٥٥ ، والدخان / ٤٠ . والمرتان الباقيتان فى المدينة ، وهما فى اللعنة : « أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (البقرة / ١٦١) ، « أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين » (آل عمران / ٨٧) . كما أنهما بنفس النص تقريبا .

الكلمات المشتقة من مادة « ف ط ر » أتت في القرآن في عشرين موضعا ، وكلها من الوحي المكي : الأنعام / ١٤ ، ٧٩ ، وهود / ٥١ ، ويوسف / ١٠١ ، وإبراهيم / ١٠ ، والإسراء / ٥١ ، ومريم / ٩٠ ، وطه / ٧٢ ، والأنبياء / ٥٦ ، والروم / ٣٠ (مرتين) ، وفاطر / ١ ، ويس / ٢٢ ، والزمر / ٤٦ ، والشورى / ٥ ، ١١ ، والزخرف / ٢٧ ، والمُلْك / ٣ ، والمزّمّل / ١٨ ، والانفطار / ١ .

التأكيد على أن الرسل لا يسألون أجرا على دعوتهم ممن يدعونهم إلى الهدى هو من ملامح القرآن الذي نزل بمكة . وقد تكرر هذا ثماني عشرة مرة : « قل : لا أسألكم عليه أجرا . إن هو إلا ذكر للعالمين » (الأنعام / ٩٠) ، « فإن توليتم فما سألتكم من أجر » (يونس / ٧٢) ، « ويا قوم ، لا أسألكم عليه أجرا . إنْ أجري إلا على الله » (هود / ٢٩) ، « يا قوم لا أسألكم عليه أجرا . إنْ أجري إلا على الذي فطرني » (هود / ٥١) ، « وما تسألهم عليه من أجر . إن هو إلا ذكر للعالمين » (يوسف / ١٠٤) ، « أم تسألهم خَرْجًا ؟ فَخَرَاجُ ربك خير » (المؤمنون / ٧٢) ، « قل : ما أسألكم عليه من أجر » (الفرقان / ٥٧) ، « وما أسألكم عليه من أجر . إن أجري إلا على رب

العالمين » (الشعراء / ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠) ، « قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم » (سبأ / ٤٧) ، « اتَّبِعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » (يس / ٢١) ، « قل : ما أسألكم عليه من أجر ، وما أنا من المتكلفين » (ص / ٨٦) ، « قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القُربى » (الشورى / ٢٣) (١٣) ، « أم تسألهم أجرا فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلون ؟ » (الطور / ٤٠ ، والقلم / ٤٦) .

لفظ « بغتة » ، الذى ورد فى القرآن فى ثلاثة عشر موضعا ، هو من الألفاظ التى تميز أسلوب الوحى المكى ، إذ لم ينزل بعد مغادرة الرسول مكة إلا فى الآية ٥٥ من سورة « الحج » (وقد تكون هذه الآية مكية مع ذلك) ، وإلا فى سورة « محمد » ، التى نزل عدد من آياتها (وربما كانت منها الآية المذكور فيها هذا اللفظ) فى الطريق ما بين مكة والمدينة . وهذه هى المواضع الثلاثة عشر : الأنعام / ٣١ ، ٤٤ ، ٤٧ ، والأعراف / ٩٥ ، ١٨٧ ، ويوسف / ١٠٧ ، والأنبياء / ٤٠ ، والحج / ٥٥ ، والشعراء / ٢٠٢ ، والعنكبوت / ٥٣ ، والزمر / ٥٥ ، والزخرف / ٦٦ ، ومحمد / ١٨ . والملاحظ أن هذه اللفظة فى كل النصوص التى وردت فيها قد جاءت مرتبطة إما بحلول العذاب الإلهى بالمشركين أو بإتيان الساعة لا غير .

لفظ « بصيرة » وجمعه « بصائر » وردا فى القرآن سبع مرات :

الأنعام / ١٠٤ ، والأعراف / ٢٠٣ ، ويوسف / ١٠٨ (بصيرة) ، والإسراء / ١٠٢ ، والقصص / ٤٣ ، والجاثية / ٢٠ ، والقيامة / ١٤ (بصيرة) . وكل ذلك فى الوحى المكى .

كلمة « سبحان » ، مضافةً إلى اسم ظاهر لا إلى ضمير ، هى من ملامح أسلوب الوحى المكىّ ، إذ من بين المرات الثمانى عشرة التى وردت فيها فى القرآن الكريم لم ترد فى نص مدنى إلا مرة واحدة (فى سورة « الحشر ») (١٤) : يوسف / ١٠٨ ، الإسراء / ١ ، ٩٣ ، ١٠٨ ، والأنبياء / ٢٢ ، والمؤمنون / ٩١ ، والنمل / ٨ ، والقصص / ٦٨ ، والروم / ١٧ ، ويس / ٣٦ ، ٨٣ ، والصافات / ١٥٩ ، ١٨٠ ، والزخرف / ١٣ ، ٨٢ ، والطور / ٤٣ ، والحشر / ٢٣ ، والقلم / ٢٩ .

التركيب التالى : « ما + أرسلنا + مفعول به أو ظرف أو كليهما + إلاّ + مستثنى منه » هو من التراكيب التى تكررت فى القرآن المكى ثلاث عشرة مرة ، على حين لم يأت فيما نزل من قرآن بعد الهجرة إلا فى سورة « النساء » ، وإلاّ فى الآية ٥٢ من سورة « الحج » ، وهى مما يغلب على ظنى أنه نزل قبل الهجرة . وهذه هى المواضع الخمسة عشر التى ورد فيها هذا التركيب : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » (النساء / ٦٤) ، « وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء » (الأعراف / ٩٤) ، « وما أرسلنا من قبلك إلا

رجالا نوحى إليهم » (يوسف / ١٠٩) ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » (إبراهيم / ٤) ، « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » (النحل / ٤٣) « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » (الإسراء / ١٠٥) ، « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » (الأنبياء / ٧) ، « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا » (الأنبياء / ٢٥) ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء / ١٠٧) ، « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيّته » (الحج / ٥٢) ، « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » (الفرقان / ٢٠) ، « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » (الفرقان / ٥٦) ، « وما أرسلناك إلا كافة للناس » (سبأ / ٢٨) ، « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أُرْسِلْتُم به كافرون » (سبأ / ٣٤) ، « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمّة ، وإنا على آثارهم مقتدون » (الزخرف / ٢٣) .

عبارة « أوَ / فلَمْ يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين ... ؟ » أتت فى ستة مواضع من القرآن : خمسة منها من المكى ، وواحد فقط مدنى (فى سورة « محمد ») . وهذه هى : يوسف /

١٠٩ ، والـروم / ٩ ، وفـاطـر ، ٤٤ ، وغـافـر / ٢١ ، ٨٢ ،
ومحمـــد / ١٠ .

ذكر اتهام الكفار للنبى عليه السلام بافتراء القرآن ونفى ذلك عنه لم يرد إلا فى القرآن المكى : يونس / ٣٧ ، ٣٨ ، وهود / ١٣ ، ٥٣ ، ويوسـف / ١١١ ، والنحـل / ١٠١ ، ١٠٥ ، والأنبيـاء / ٥ ، والفرقـان / ٤ ، والسجــدة / ٣ ، وسبـأ / ٨ ، ٤٣ ، والشورى ٢٤ (١٥) ، والأحقاف / ٨ .

لفظ « تفصيل » تكرر فى القـرآن خمس مرات كلها مكية : « وتفصيلاً لكـل شىء » (الأنعام / ٥٥ ، والأعـراف / ١٤٥) ، « وتفصيـل الكتـاب » (يونـس / ٣٧) ، « وتفصيـل كـل شىء » (يوسـف / ١١١) ، « وكـل شـىء فصّلناه تفصيلا » (الإسراء ١٢) (١٦) .

قوله : « هُدًى ورحمة » غير معروف إلا فى الوحى المكىّ ، الذى ورد فيه ثلاث عشرة مرة : الأنعام / ١٥٤ ، ١٥٧ ، والأعراف / ٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٠٣ ، ويونس / ٥٧ ، ويوسف / ١١١ ، والنحل / ٦٤ ، ٨٩ ، والنمل / ٧٧ ، والقصص / ٤٣ ، ولقمان / ٣ ، والجاثية / ٢٠ .

فهذه سبعة وثلاثون ملمحًا أسلوبيًا آخر من الملامح التى ينفرد بها الأسلوب المكىّ أو يكاد ، أضعها بين يدى الباحثين هى وأخواتها التى

سبق أن استخرجتُها عند دراستى لسورتى « الرعد » و « طه » ، راجيًا متى تم الانتهاء من استخلاص جميع الخصائص الأسلوبية المكية والمدنية أن يضىء لنا ذلك من أسرار الأسلوب القرآنى فى مكّيه ومدنيّه ما لانعرفه الآن .

ولكن متى نزلت السورة فى مكة ؟ وما الملابسات التى صاحبت نزولها ؟

ليس فيما كتب العلماء والمفسرون القدماء الذين رجعتُ إليهم إجابة مباشرة عن السؤال الأول ، وإنما كلام عن ترتيب نزول السورة مما يمكن أن يشير إلى ذلك إشارة ، إذ سبق « يوسفَ » فى النزول سُوَرٌ كثيرة فيها عدد غير قليل من السور الطويلة ، مما يدلُّ على أنها ليست من بدايات الوحى على الأقل . أما فى العصر الحديث فإن محمد مارمادوك بكتل ، مترجم القرآن إلى الإنجليزية ، قد نصّ على أنها من الوحى المكى المتأخّر (١٧) . وكان سيد قطب أكثر تحديدا ، إذ قال إنها نزلت « بين عام الحزن بموت أبى طالب وخديجة سَنَدَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين بيعة العقبة الأولى ... وعلى هذا فالسورة واحدة من السُوَر التى نزلت فى تلك الفترة الحرجة فى تاريخ الدعوة وفى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والعصبة المسلمة معه فى مكة » (١٨) .

ومما يدل على صحة هذا التحديد أنه جلّ جلاله يخاطب رسوله

عليه الصلاة والسلام فى آخر السورة بقوله : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنُجّىَ من نشاء » (١٩) . وهذا كلام يناسب أن يكون قد نزل بعد أن بلغت عداوة المشركين للاسلام ورسوله ذروتها ، وأُخِذ بخناق المسلمين أخذاً شديدا يكاد يكظم منهم الأنفاس، وأحسّوا أن كل الأبواب قد سُدّت فى وجوههم واربدّت الآفاق فى عيونهم . وفضلاً عن ذلك ، فإن السورة تُبْرِز من أحداث حياة يوسف عليه السلام حقد إخوته عليه وعملهم على التخلص منه، ونجاحهم فى إبعاده عن بلده وأبيه ، الذى كان شديد الحب له والوله عليه ، وإبطال الله سبحانه هذا الكيد ، وتحويله إلى لطف منه به وإكرام عظيم له ، وتبوينه إياه ، وهو الغريب ، مكانة اجتماعية وسياسية سامية فى مصر ، وإيقافه إخوته أمامه موقف الضعف والحاجة والمذلة والخوف . وقد كان حقد المشركين على النبى عليه السلام فى تلك الفترة قد بلغ ذروته ، وصاروا يفكرون فى قتله أو على الأقل إخراجه من بلده . وأغلب الظن أن الله عزّ وجلّ قد أراد بذلك تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وتطمينه بأنه ناصره وجاعلٌ له ولدينه السيادة على قومه الحاقدين ، مثلما فعل مع يوسف وإخوته .

أما عن ملابسات نزول السورة فقد جاء فى بعض الروايات أنه بعد أن نـزل القرآن على رسول الله عليه السلام وتلاه على أصحابه زمانا قالـوا له : « يارسول الله ، لو قصصت علينا ؟ » فنزلت (٢٠) . ولكن فى

النفس شيئًا من هذه الرواية ، إذ يُفْهَم منها أن القرآن ، قبل نزول السورة ، يخلو من القصص ، مع أنه نزل قبلها سُوَر « القمر » و « الأعراف » و « يس » و « الفرقان » و « مريم » و « طه » و « الشعراء » و « النمل » و « القصص » و « يونس » و « هود » (٢١) . وفى هذه السُورَ قصص كثير . ثم هل يُعْقَل ، كما يُفْهَم أيضا من هذه الرواية ، أن تلك كانت المرة الوحيدة التى هفت فيها أنفسهم لسماع القصص ؟ وهل خلت مكة من القصَّاصين الذين يُذْهِبون الملل بحكاياتهم حتى يطلبوا ذلك من القرآن ؟ كذلك فإن نصّ القرآن فى سورتنا على أن الرسول كان لا يعرف شيئا عن هذه القصة من قبل (٢٢) ، وأنه لم يكن مع إخوة يوسف حين أجمعوا أمرهم وهم يمكرون (٢٣) ، يوحى بأن إنزالها لم يكن استجابة لرغبة أبداها الصحابة فى سماع شىء من القصص ، بل للردّ على قوم يكفرون بنبوته عليه السلام ويشككون فى مصدر القرآن ويتهمونه صلى الله عليه وسلم بأنه هو صاحبه يأتى به من عند نفسه .

ومن هنا فإنى أميل إلى قبول الرواية الثانية التى تقول إن اليهود أرادوا أن يحرجوا النبى بسؤاله (بأنفسهم أو عن طريق مشركى قريش) عن قصة يوسف مع إخوته (٢٤) ، وهى ممَّا ورد فى كتبهم ، ظنًّا منهم أنه سيعجز عن الإجابة لعدم علمه بما فى هذه الكتب ، وعندئذ تكون

فضيحــة لـه ، فنزل الوحى على الفور بالسورة فخرست الألسنة واغتمت الوجوه .

الهوامش

١- انظر فى هذه النقطة مثلا الطبرسى / مجمع البيان فى تفسير القرآن / دار مكتبة الحياة / بيروت / م ٤ / ج ١٣ / ٥ ، والألوسى / روح المعانى / دار إحياء التراث العربى / بيروت / ١٢ / ١٧٠ ، ومحمد الطاهر بن عاشور / تفسير التحرير والتنوير / الشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر / ١٢ / ١٩٧ ، وترجمة محمد حميد الله للقرآن إلى الفرنسية بعنوان « Le Saint Coran » / بيروت / ط ٨ / ١٩٨٣ م / 302 .

٢- الإتقان / دار الفكر / بيروت / ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / ١ / ١٥ .

٣- روح المعانى / ١٢ / ١٧٠ . والمقصود بـ « الحبر » هو ابن عباس .

٤- تفسير التحرير والتنوير / ١٢ / ١٩٧ .

٥- انظر د . صبحى الصالح / مباحث فى علوم القرآن / دار العلم للملايين / بيروت / ط ١٦ / ١٩٨٥ م / ١٨٢ ، ومناع القطان / مباحث فى علوم القرآن / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ٩ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / ٦٣ .

٦- هناك انقسام بشأن سورة الرعد : أهى مكية أم مدنية ؟ وقد أثبتَ على مدى الفصل الأول من كتابى « سورة الرعد - دراسة أدبية وأسلوبية » أنها لا يمكن أن تكون إلا مكية ، إذ استخرجت منها نحو ثلاثين ملمحا أسلوبيا مكيا ، ما بين لفظة وعبارة وتركيب وصورة بلاغية ، إلى جانب موضوعاتها التى تتميز بها السور المكية .

٧- الآية / ١٠٢ .

٨- الأوفق أن يقال : « وهذا نصهما » ، لأنه ذكر نص الآيتين معًا لا آية واحدة منهما .

٩- سيد قطب / فى ظلال القرآن / دار الشروق / بيروت / ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م / ٤ / ١٠٤٠ - ١٩٥٠ .

١٠- انظر فى ذلك مثلا د . صبحى الصالح / مباحث فى علوم القرآن / ١٨٢ ، ومناع القطان / مباحث فى علوم القرآن / ٦٣ .

١١- ذكر محمد فؤاد عبدالباقى أن هذه الآية مدنية ، ولا أظنها كذلك (انظر « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » / ٦٨) .

١٢- يعدّ بعض العلماء الآية ٥٦ من « غافر » والآية ٢٣ من « الرحمن » مدنيتين ، ولا أحسبهما إلا مكيتين (انظر « المعجم المفهرس » / ٣٥٥) .

١٣- يرى بعض العلماء أن هذه الآية مدنية (المعجم المفهرس / ٣٣٧) ، ولا أدرى لماذا .

١٤- وإن ذكر بعضهم أن الآية ١٧ من « الروم » والآية ٢٩ من « القلم » هما أيضا مدنيتان ، ولا أظن ذلك (انظر « المعجم المفهرس ») .

١٥- وإن كان بعض العلماء يذكر أن هذه الآية مدنية (انظر « المعجم المفهرس » / ٢٤) .

١٦- بل يلاحظ أيضا أن كل مشتقات هذا المصدر ، وقد وردت ١٩ مرة ، قد أتت كلها فى الوحى المكى ، ماعدا الآية ١١ من « التوبة » .

17- Mohammad Marmaduke Pickthall , The Meaning of the Glorious Koran , Mentor Book , p. 174 .

١٨- سيد قطب / فى ظلال القرآن / ٤ / ١٩٤٩ .

١٩- يوسف / ١١٠ .

٢٠- انظر تفسير الطبرى / دار الفكر / بيروت / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م / ١٢ / ١٥٠ ، وتفسير الألوسى / ١٢ / ١٧٠ .

٢١- انظر فى ترتيب نزول السور « الإتقان » / ١ / ١١ ، ٢٥ - ٢٦ .

٢٢- الآية / ٣ .

٢٣- الآية / ١٠٢ .

٢٤- انظر تفسير الطبرى / ١٢ / ١٥٠ ، وتفسير الزمخشرى / دار الفكر / بيروت / ٢ / ٣٠٠ ، وتفسير الألوسى / ١٢ / ١٧٠ ، و S. Abul A'la Maududi , The meaning of the Quran , Islamic Publications Ltd., Lahore , 3rd ed., 1980 , vol. V , p. 119 , 176 .

خصائص السورة

لاحظت أن كل سورة من سور القرآن الكريم تتميز ببعض الأشياء التى تجعل لها شخصيتها المستقلة . وبالنسبة للسورة التى نحن إزاءها الآن نجد أنها هى السورة الوحيدة التى اقتصرت على قصة واحدة من قصص الأنبياء وعرضتها بكل حلقاتها دفعة واحدة . كما أن فيها بعض الألفاظ والعبارات والاستعمالات اللغوية التى لم ترد فى سورة غيرها ، ومن ذلك :

- العدد « أحد عشر » (الآية / ٤) ، ودخول لام الابتداء على علم من الأعلام ، وذلك فى قوله تعالى : « إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة » (الآية / ٨) .

- وكلمات « غيابة » و « الجبّ » (الآية / ١٠) ، و « السيّارة » (الآيتان ١٠ ، ١٩) ، و « يرتع » (الآية / ١٢ . وبالمناسبة ليس فى سائر القرآن أى لفظة أخرى من مشتقات هذه المادة) ، و « قميص » (الآيات / ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٩٣ . وليس فى القرآن الكريم مشتقات أخرى من أصل هذه الكلمة) ، و « دلْو » (الآية / ١٩) ، و « بضاعة » (الآيات / ١٩ ، ٦٢ ، ٦٥ (مرتين) ، ٨٨) ، و « الزاهدين » (آية / ٢٠ . وهى الكلمة الوحيدة فى القرآن المشتقة من هذا الجذر) .

- واستعمال لفظة « رب » بمعنى « السيّد » (الآيات / ٢٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٠) .

- والمضارع من « سَجَنَ » (الآيات / ٢٥ ، ٣٢ ، ٥٣) .

- واستعمال كلمة « العزيز » لقبًا من ألقاب الحكم (الآيات / ٣٠ ، ٥١ ، ٧٨ ، ٨٨) .

- والعبارة التعجبية « حاش لله » (الآيتان / ٣١ ، ٥١) .

- و « السِّجْن » (الآيات / ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٠٠) ، و « الخُبْز » (الآية / ٣٦) .

- واستعمال كلمة « أحَد » مضافةً (الآية / ٤١ « أحدكما » ، والآية / ٧٨ « أحدنا ») .

- واسم الفاعل من « نجا » (الآية / ٤٥) .

- ولفظة « عجاف » ، وهى الاشتقاق الوحيد من مادتها فى القرآن (الآيتان / ٤٣ ، ٤٦) .

- وتكرير « لعلّ » فى جملتين متعاقبتين ثانيتهمامترتبة على الأولى (الآية / ٤٦ « لعلّى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » ، والآية / ٦٢ « وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ») .

- والفعل « حَصْحَصَ » (الآية / ٥١) .

- وتحديد الخيانة بأنها « بالغيب » (الآية / ٥٢ « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ») .

- و « استخلص » (الآية / ٥٤) .

- والكلمتان « جهز » و « جهاز » ، وهما الكلمتان الوحيدتان من مادتهما فى القرآن الكريم (الآيتان / ٥٩ ، ٧٠) .

- ولفظة « رحل » وجمعها « رحال » (الآيات / ٦٢ ، ٧٠ ، ٧٥) ، وكذلك لفظتا « بعير » (الآيتان / ٦٥ ، ٧٢) ، و « عير » (الآيات / ٧٠ ، ٨٢ ، ٩٤) ، ولفظة « وعاء » وجمعها « أوعية » (الآية / ٧٦) ، والفعل « استيأس » (الآيتان / ٨٠ ، ١١٠) ، والفعل « تفتأ » (الآية / ٨٥) ، وكلمة « حرضا » (الآية / ٨٥). وليس فى القرآن اشتقاقات أخرى غيرها من نفس الجذر) ، وال « بث » (الآية / ٨٦) ، والفعل تحسس » (الآية / ٨٧) ، و « تثريب » (الآية / ٩٢ . وهى الوحيدة من مادتها فى القرآن) .

- واستعمال كلمة « الريح » بمعنى « الرائحة » . قال عز شأنه : « ولمّا فصلت العيرُ (ومعها قميص يوسف عليه السلام ، الذى طلب منهم أن يأخذوه ويضعوه على وجه أبيه فيرجع إليه بصره) قال أبوهم : إنى لأجد ريح يوسف » (الآية / ٩٤) .

- والفعل « تفندون » (الآية / ٩٤ . وليس فى القرآن اشتقاقات

أخرى من نفس مادته) .

- واستعمال كلمة « البشير » معرّفةً بالألف واللام (الآية / ٩٦ « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجه فارتدّ بصيرا ») .

- واستعمال « ارتدّ » مثل « كان » (الآية السابقة) .

كذلك لاحظتُ أن كثيرا من سور القرآن الطويلة تتكرر فيها بعض الألفاظ والعبارات والتراكيب والصور . وهاهو ذا ما رصدته من ذلك القبيل في سورة « يوسف » ، وبعضه مما سبق ذكره بين ما انفردَتْ به هذه السورة :

- الصفة « مبين » (الآيات / ١ ، ٥ ، ٨ ، ٣٠) .

- الكيد ومشتقاته (الآيات / ٥ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٧٦) .

- وعبارة « تأويل الأحاديث » (الآيتان / ٦ ، ٢١) .

- والأمر من « أرسل » (الآيات / ١٢ ، ٤٥ ، ٦٣) .

- وصيغة « افتعل » من مادة « سبق » (الآيتان / ١٧ ، ٢٥) .

- وعبارة « بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا » (الآيتان / ١٨ ، ٨٣) .

- وكذلك عبارة « فَصَبْرٌ جميل » (نفس الموضعين السابقين) .

- وكلمة « قميص » (١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٩٣) .

- وكلمة « بضاعة » (الآيات / ١٩ ، ٨٢ ، ٦٥ (مرتين) ،

٨٨) .

- وكلمة « مثوى » (الآيتان / ٢١ ، ٢٣) .

- والفعل « راود » ماضيًا ومضارعًا (الآيات / ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٥١ (مرتين) ، ٦١) .

- عبارة « معاذ الله » (الآيتان / ٢٣ ، ٧٩) .

- استعمال كلمة « ربّ » بمعنى « السيّد » (الآيات / ٢٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٠) .

- ولفظة « سُوء » (الآيات / ٢٤ ، ٢٥ ، ٥١ ، ٥٣) .

- وعبارة « من الصادقين » (الآيتان / ٢٧ ، ٥١) .

- والعبارة التعجبية « حاشَ لله » (الآيتان / ٣١ ، ٥١) .

- وكلمة « السِّجْن » (الآيات / ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٠٠) .

- وعبارة « إنّا نراك من المحسنين » (الآيتان / ٣٦ ، ٧٨) .

- وتكرير « لعلَّ » فى جملتين متعاقبتين ثانيتهما مترتبة على الأولى (الآيتان / ٤٦ ، ٦٢) .

- والفعل « دخلوا » (الآيات / ٥٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ٩٩) .

- وعبارة « آوَى إليه ... » (الآيتان / ٦٩ ، ٩٩) .

- والقسم بـ « تالله » (الآيات / ٧٣ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٥) .

- والفعل « استيأس » (الآيتان / ٨٠ ، ١١٠) .

- دخول اللام المزحلقة على خبر « إنَّ » : « إن أبانا لفى ضلال مبين » (الآية / ٨) . « وانا له لناصحون » (الآية / ١١) . « وانا له لحافظون » (الآيتان / ١٢ ، ١٦) . « إنا إذن لخاسرون » (الآية / ١٤) . « إنا لنراها فى ضلال مبين » (الآية / ٣٠) . « وانه لمن الصادقين » (الآية / ٥٢) . « إن النفس لأمّارة بالسُّوء » (الآية / ٥٣) . « وانا لفاعلون » (الآية / ٦١) . « وانه لذو علم لما علّمناه » (الآية /٦٨) . « إنكم لسارقون » (الآية / ٧٠) . « وانا لصادقون » (الآية /٨٢) . « إنى لأجد ريح يوسف » (الآية / ٩٤) . « إنك لفى ضلالك القديم » (الآية / ٩٥) .

وهذه التكرارات هى بمثابة خيوط تساهم فى ربط آيات السورة بعضها ببعض فتزيدها متانة وتماسكا . كما أنها من ناحية أخرى تشبه الأصداء التى تتردّد فى مكان فسيح مغلق مما يكون له تأثير إيقاعى جميل .

أما بالنسبة لفواصل السُّورة فإن السيادة فيها لفاصلة « ... ين » ، تليها فاصلة « ... ون » ، (وإن كان الفرق بينهما غير كبير ، فكلتاهما نيف وأربعون) ، ثم « ... يم » . ولعل هذه الفواصل الثلاث هى أكثر الفواصل دورانًا فى القرآن الكريم . ثم هناك فاصلة واحدة على

كل من « ... ـسار » ، (الآية / ٣٩) ، و « ... ـسان » (الآية / ٤١) ، و « ـسير » (الآية / ٦٥) ، و « ... ـسيل » (الآية / ٦٦).

وقد بدأت السورة بفاصلة الـ « ... ـين » ، وهى أعلى الفواصل تكرارا فى السورة ، وانتهت بفاصلة الـ « ... ـون » ، التى تأتى فى المرتبة الثانية من حيث التكرار ، فكانت الصدارة للفاصلة الأكثر دورانًا .

كما وجدتُ أن الفاصلة « ... ـيم » قد وَلِيَت الفاصلة « ... ـين » أكثر مما وَليت « ... ـون » ، إذ بينما عقَبت الأولى عشر مرات (الآيات / ٦ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٤، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٦ ، ٩٨ ، ١٠٠) نجد أنها عقَبت الأخيرة أربع مرات فقط (الآيات / ٥٠ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ٩٥) . ولعلَّ هذا التفاوت راجع إلى أن « ... ـيم » أقرب إلى « ... ـين » (بسبب اشتراكهما فى مدّة الياء) منها إلى « ... ـون » ، وأن فواصل الأولى أزيد من فواصل الثانية .

أما الفواصل الأربع الأخرى التى خُتِمت بكل منها آيةٌ واحدة فقد توزعت بالتساوى بين فاصلتى الـ « ... ـين » والـ « ... ـون » (١) ، إذ جاء كل من فاصلتى الـ « ... ـسار » والـ « ... ـسان » بعد آية مختومة بـ « ... ـون » ، بينما جاءت فاصلتا الـ « ... ـير » والـ « ... ـيل » متتابعتين بعد آية مختومة بـ « ... ـين » . ويُلاحَظ انسجام هذه الفواصل الثلاث الأخيرة معًا بحكم مدّة الياء المشتركة بينها .

كذلك لاحظتُ أن أكثر حرفين يقترنان بفاصلة الـ « ... سين » هما النون والميم ، وأكثر حرفين يقترنان بفاصلة الـ « ... ون » هما اللام والراء .

أما من ناحية توزيع فاصلتى الـ « ... سين » والـ « ... ون » فقد وجدتُ أن السيادة من بداية السورة إلى الآية العاشرة هى للأولى ، على حين أن السيادة فى الآيات الأخيرة ابتداءً من الآية الخامسة بعد المائة هى للأخيرة . ومع ذلك فإن عدد المرات التى تكررت فيها الفاصلة الأولى فى بداية السورة أكبر من تلك التى تكررت فيها الأخيرة فى نهايتها . أما فى داخل السورة فأحيانا ما تتابع عدة آيات منتهية بـ « ... سين » لتعقبها أخرى منتهية بـ « ... ون » ، وأحيانا ما تتداخل تلك الآيات مع هذه : مثلا آية وآية ، أو آيتين وآية ، أو آيتين وآيتين .

الهوامش

١- للتذكير أكرر ماقلته قبل قليل من أن مرات تكررهما فى السورة متقاربة ، فلا غرابة أن تكون القسمة هنا متساوية بينهما .

قصة يوسف بين القرآن الكريم والعهد القديم

على حين أن يعقوب (أبا يوسف عليهما السلام) فى القرآن نبى مكرَّم ، وصورته التى يرسمها له هى صورة وضيئة من كل ناحية ، وبخاصة من ناحية العقيدة والخلق ، فإننا نفاجأ فى العهد القديم بيعقوب وهو يحلم بسلَّم يصل بين السماء والأرض يقف عليه الله ، ثم يستيقظ قائلاً : « حقاً إن الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم . وخاف وقال : ما أرهب هذا المكان ! » (١). إن هذه للأسف عقيدة الوثنيين ، الذين يتصورون الله مثل البشر ، فهو عندهم إن كان فى مكان غاب عن الأمكنة الأخرى ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فهو سبحانه أكبر من كل الأمكنة والأزمنة . وكيف لا يكون وهو خالقها بل خالق كل شىء ؟

ولا نمضى إلا أسطرا قلائل لنفاجأ بداهية أخرى ، حيث نسمع يعقوب عليه السلام يساوم الله على اعترافه بألوهيته عز وجل قائلاً : « إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه وأعطانى خبزا لآكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبى يكون الرب لى إلها ، وهذا الحجر الذى أقمته عمودًا يكون بيت الله ، وكل ماتعطينى فإنى أُعشّره لك » (٢) . ولكن ماذا لو لم تُحقَّق له هذه المطالب ؟ ألا يتخذه إلها ويعبده ويخرج العُشْر من ماله ؟ (ولا ندرى أين سيذهب هذا العشر ،

فالله لايحتاج منا عشرا ولاخمسا ولا أدنى من ذلك ولا أكثر) . ثم إن تلك المطالب جميعها مطالب مادية : أكل وشرب وملابس وحفظ للجسد . أهذه هي عقلية الأنبياء وتلك كل طموحاتهم ؟ ألا ما أهون النبوة وأهون أصحابها عند بني إسرائيل !

ثم يجعله كاتب العهد القديم يقبّل راحيل ابنة لابان (الذى يقول مرة إنه خاله ومرة إنه أخوه ، وهو تناقض كما ترى مضحك) ، وراحيل هذه لم تكن زوجته ولا حتى خطيبته ، بل كانت تلك أول مرة يلتقيان فيها . وتذهب الرواية فتقول إنه بعد أن قبّلها رفع صوته وبكى (٣) . ولا ندرى لم كل هذا التخبّط الخلقى والانفعالى ما بين تقبيل حرام إلى صياح وبكاء بدون سبب .

ثم يحب يعقوب راحيل ويخطبها من أبيها . ولكنه عند حلول ميعاد الزواج يعطيه أختها ليئة بدلا منها ، فيقضى يعقوب الليلة معها ليُصدم فى الصباح بأنها ليست راحيل ، فيحتج لدى أبيها عبثا (٤) . وهو أمر غريب جدًا ، إذ كان ينبغى أن تكون الصدمة فالاحتجاج فى أول الليل ، لا عند بزوغ الصباح بعد أن قضى منها وطره !

وبعد عدة صفحات نشهد مصارعة ضارية بين الله ، الذى اتخذ صورة إنسان (أستغفره سبحانه) ، ويعقوب ، الذى يمسك به فلا يستطيع أن يخلّص نفسه منه فيضربه على حُق فخذه ، ولكن يعقوب يرفض إطلاقه

قبل أن يباركه (٥) . وهذه ، كما نرى ، هلوسات وثنية مخبولة كلّها تجديف شنيع جامح فى حق المولى عز وجل وحقّ نبيّه الكريم . نستغفره سبحانه ونقدّسه !

ولايقتصر الفساد والدَّغَل على العقيدة ، فقد تكرر الزنا ، حسب رواية العهد القديم ، فى هذه الأسرة ، فشكيم بن حمور يزنى بابنة يعقوب (٦). وراؤبين بن يعقوب يزنى بِسُرِّيَّة أبيه بلهة ، أم إخوته . ويعرف يعقوب ولا يصنع شيئا (٧) ، مما يدل على أن الزنا عند هؤلاء اليهود أمر لاغبار عليه ، ويمكن أن يقع فى بيوت الأنبياء فلا يجدوا فيه حرجًا . ويهوذا بن يعقوب يزنى بزوجة ابنه وهو لايعرف أنها كَنَّته لأنها كانت مبرقعة ، وإن كانت هى تعرفه . ثم لمَّا بلغه أنها زنت حكم بحرقها ، ولكنها لمَّا عرّفته أنه هو الذى زنى بها خَرِس ولم ينبس بشىء ! (٨)

ثم إن هذه الكَنّة قد حملت ، وكان فى بطنها توأمان . ويذكر المؤلف أن أحد التوأمين قد ابتدأ ينزل أولاً فظهرت يده وأن القابلة قد ربطت عليها خيطًا ليُعْرَف أنه هو الأكبر ، لكنه استردَّ يده ونزل أخوه قبله (٩) . وهى حكاية طريفة تصلح « حدّوتة » لتسلية الأطفال ، ولكن لا معنى لورودها فى كتاب يدّعى أصحابه أنه كتاب مقدس .

ونصل إلى يوسف عليه السلام والرؤيا التى شاهدها فى منامه . إن

القرآن الكريم يذكر أنه قصَّ على أبيه وحده هذه الرؤيا فنصحه ألا يحكيها لإخوته حتى لا يزداد حقدهم عليه ويؤذوه ، وباركه مبينًا له أن ما رآه فى حُلْمه إنما هو نعمة إلهية وأن الله سيكرمه ويصطفيه : « إذ قال يوسف لأبيه : يا أبَتِ ، إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ، رأيتُهم لى ساجدين ❊ قال : يا بُنَىَّ ، لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا . إن الشيطان للإنسان عدوّ مبين » (١٠) . أما على رواية العهد القديم فإن يوسف يحكى منامه أمام أبيه وإخوته معًا . وهذا غير ما فى القرآن . وينتهره أبوه مقرِّعًا إياه على أنه هو وأمه وإخوته سيسجدون له (١١) ، وكأن يوسف هو الذى صنع الحلم بنفسه أو كأنه كان يستطيع ألاَّ يحلمه . كذلك فليس يوسف هو الذى فسَّر الحلم ، بل كل ما فعله هو أنه حكى ما رآه فى المنام ، ففسّره أبوه على هذا النحو ، فكيف ينتهره إذن ويقرِّعه ؟ وهذا أيضًا غير ما فى القرآن ، وهو لا ينسجم مع ما جاء فى العهد القديم فى الإصحاح نفسه من أن يعقوب كان يحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته ، إذ الأب الذى يحب ابنه أكثر من سائر إخوته حُبَّ يعقوب ليوسف لا ينتهره ويقرِّعه هكذا ، ولغير ما سبب كما وضَّحنا .

وعجيب بعد ذلك أن يرسل يعقوب بنفسه يوسف إلى إخوته فى المرعى ليأتيه بأخبارهم ويطمئنه عليهم ، وهو يعلم مدى الحقد الذى فى

قلوبهم عليه بسبب من هذه الأحلام ولإيثاره إياه عليهم كل ذلك الإيثار ، وبخاصة أن يوسف كان صغيرا لايستطيع أن يعرف الطريق ، فقد ذكر العهد القديم أنه قد ضلَّ فى الحقول قبل أن يصل إلى إخوته (١٢) . أما القرآن الكريم فيقول إن إخوة يوسف تآمروا على التخلص منه كى يخلو قلب أبيهم لهم ، ثم ذهبوا إلى أبيهم وعرضوا عليه أن يرسل معهم يوسف ليلعب ويرتع فى المراعى والحقول ووعدوه بأن يحفظوه من كل شرّ ، بيد أن الوالد الولهان الذى يعرف مايكنونه لأخيهم من بغضاء يحاول أن يصرفهم عن هذا بأنهم يمكن أن يغفلوا عنه فيفترسه الذئب ، فيؤكدون له أن هذا غير ممكن ، إذ من العار والخسار عليهم أن يستطيع الذئب أن يصل إليه وهم عصبة أقوياء . ثم لايجد يعقوب مناصًا من أن يصطحبوه معهم ليأتوه فى آخر النهار بعد أن ألقوا به فى البئر فيخبروه أن الذئب قد أكله كما توقَّع ، إذ قد انشغلوا عنه بالتسابق وتركوه عند أمتعتهم فجاء الوحش وافترسه (١٣) . والذى فى القرآن هو الأقرب إلى العقل ، إذ من الطبيعى أن يخاف يعقوب على يوسف من إخوته ويحرص من ثمَّ على ألا يرسله بنفسه إليهم فى البرية حيث يمكن أن يؤذوه وهو بعيد عنه . كما أن من الطبيعى أيضا أن يدفع البغض هؤلاء الإخوة الأشرار إلى إيذاء أخيهم المفضل عليهم هذا التفضيل الشديد لدى أبيهم .

ويتفاوت رد فعل يعقوب بين القرآن الكريم والعهد القديم ، فعلى

حين يذكر القرآن أنه تذرّع بالصبر الجميل واستعان بالله على لوعة قلبه : « وجاءوا على قميصه بدم كذب . قال : بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا . فصبرٌ جميل ، والله المستعان على ماتصفون » (١٤) نجد مؤلف سفر « التكوين » يدّعى على الأب المفؤود أنه قد مزّق ثيابه وناح على ابنه أياما كثيرة ورفض أن يتعزّى قائلاً : « إنى أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية » (١٥) . وهو سلوك لا يليق بالأنبياء وقوة إيمانهم وصبرهم الجميل . إن من الطبيعى أن يحزن الأب على فلذة كبده ، بل إن الذى لايحزن فى مثل هذه الحالة هو أب غير سوىّ . لكن ثمة فرقا هائلاً بين هذا الشعور الفطرى وبين الجزع الذى تتبدد معه النفس شَعاعًا ويستعصى القلب على العزاء . إن هذا لدليل على هشاشة الإيمان والعجز المطلق عن التماسك فى وجه حدثان الحياة . وحاشا للأنبياء أن يكونوا بهذا الضعف المزرى .

وتمر قافلة بالبئر التى أُلْقِىَ فيها يوسف ويذهب أحدهم للاستقاء منها ويدلى بالدلو فيجد غلامًا فيفرح به ويأخذه إلى رفاقه ويقررون بيعه (١٦) . هذا ما جاء فى القرآن . أما العهد القديم فيورد تفاصيل أكثر كعادته ، إذ يقول إن قافلة من الإسماعيليين (أى العرب) مرَّت بالمكان فقرّر الإخوة ، بناءً على نصيحة يهوذا ، أن يبيعوا يوسف لهم ، لكن قافلة أخرى من مديان تمرّ بالبئر وتنتشل يوسف وتبيعه للقافلة

العربية ، التى أخذته إلى مصر وباعته هناك (١٧) . وينتقد أبو الأعلى المودودى العهد القديم لهذا التعقيد فى عملية انتشال يوسف وبيعه (١٨) . لكن من الممكن أن يقال إن هذا هو ما حدث . صحيح أن القرآن لم يذكر إلا أن يوسف قد أُخرج من البئر ، وانتهى به المطاف إلى أنْ بِيعَ إلى أحد المصريين ، وهو العزيز . لكننا نعرف أن القرآن كثيرا مايختصر الحوادث بل ويترك فترات زمنية بأكملها . ومع ذلك فللمودودى الحق كل الحقّ فى انتقاده للتناقض الحادّ المزعج الذى سقط فيه كاتب القصة ، الذى نسى ما قاله قبل قليل من أن المديانيين باعوه للعرب وأن هؤلاء حملوه إلى مصر وباعوه بدورهم هناك ، إذ عاد فقال فى آخر الإصحاح بعد آيات ثمان ليس إلا : « وأما المديانيون فباعوه فى مصر لفوطيفار خصىّ فرعون رئيس الشُرَط » (١٩) . وهو واحد من التناقضات التى لا تكاد تنتهى فى الكتاب المقدس (٢٠) .

وإن قول المؤلف عن فوطيفار إنه كان خصيا هو تناقض آخر من تلك التناقضات . ووجه التناقض فيه أن فوطيفار هذا كانت له زوجة بنص العهد القديم (٢١) . أما كيف يكون الشخص خصيًا وله فى نفس الوقت زوجة ، بله أن ترضى أية امرأة أن تتزوجه ، فهذا ما نتركه لمؤلف القصة والذين يؤمنون بأن ما يؤلفه وحى إلهى . أما القرآن فلا يذكر عن العزيز (وهذا هو لقبه فيه) أى شىء غير طبيعى من الناحية الجنسية ، فسلم بذلك من

هذا التناقض الأبله .

وشيء آخر يفترق فيه طريق القرآن الكريم عن طريق العهد القديم : فالقرآن الكريم حين يصف محاولات امرأة العزيز لإيقاع يوسف في حبائلها وكلمات الإغراء التي كانت تستميله بها يورّي بهذه العبارة : « وقالت : هَيْتَ لك ! » (٢٢) . أما العهد القديم فيذكر أنها قالت له : « اضطجع معي » ، هكذا بصريح اللفظ دون تورية . وقد تكرر ذلك فيه مرتين (٢٣) . ثم كرره المؤلف مرة ثالثة حين اتهمته أمام أهل بيتها بأنه دخل عليها « ليضطجع » معها (٢٤) ، بينما يكتفي القرآن بالإشارة المهذّبة إلى هذا ، إذ تقول امرأة العزيز لزوجها عن يوسف إنه قد « أراد بأهلك سوءا » (٢٥) . وهذا هو الأحجى بالكتب السماوية ، التي نزلت لترتقي بغرائز البشر وتهذّب أذواقهم لا لتُسمِعهم مثل هذه الأقوال بِعُرْيِها وفجاجتها .

هذا ، وليس في العهد القديم أن امرأة العزيز قد « غلّقت الأبواب » كما جاء في القرآن الكريم (٢٦) . وكذلك ليس فيه أنها ويوسف قد « استبقا الباب » ولا أنها « قدّت قميصه من دبر » (٢٧) ، وإنما فيه أنها أمسكته من ثوبه فتركه في يدها وهرب إلى الخارج (٢٨) . وأيضًا لم يذكر شهادة قريبها التي برأت يوسف ، إذ حكم بأن القميص إذا كان قد مُزّق من الخلف فهو بريء وهي الكاذبة ، والعكس بالعكس ، ثم وجدوا

أن القميص ممزق من الخلف . ومع هذا فقد وضع يوسف بعد ذلك فى السجن إلى حين ، على حسب ما جاء فى القرآن الكريم (٢٩) . أما فى سفر « التكوين » فإن الزوج قد انخدع بدعوى زوجته وألقى يوسف فى الحبس دون تثبت (٣٠) . ويخلو العهد القديم أيضا من الحديث عن النسوة اللائى أخذن يلكن سيرة امرأة العزيز ويتحدثن عنها ما كان منها مع غلامها ، ومن ثم فلا ذكر فيه للمائدة التى أعدتها لهن، ولا لمراودتهن إياه عن نفسه مثلما فعلت امرأة العزيز ، التى فضحتها من أجل ذلك ، كما ورد فى سورة « يوسف » (٣١) .

وفى السجن ، على حسب رواية مؤلف سفر « التكوين » ، لا نسمع يوسف يدعو إلى الإيمان بالله وإفراده سبحانه بالألوهية ونبذ الأصنام ، التى يقول إنها ليست إلا مجرد أسماء لا حقيقة لها (٣٢) . إن يوسف هو نبى من أنبياء الله المصطفين ، ومن واجب رسالته أن يدعو إلى وحدانية الله ويحمل على الشرك والمشركين ، بيد أن كاتب العهد القديم يغفل هذه الحقيقة ويصور يوسف عليه السلام مجرد شخص عادى لا علاقة له بالسماء ولا بالدعوة إلى الله . كلا ، بل إنه ليجعله يقسم بـ « حياة فرعون » مرتين فى حديثه إلى إخوته عندما وفدوا عليه ليمتاروا منه وهم لا يعرفونه . وكان قسمه فى المرة الثانية إنهم لجواسيس إذا لم يرسلوا بواحد منهم ليحضر أخاهم الصغير الذى بقى مع أبيهم ، مع أنه

يعلم تمام العلم أنَّهم ليسوا بجواسيس (٣٣) . أى أنه قد حلف بغير الله ، وعلى شيءٍ غير صحيح ! وهل يمكن أن يفعل نبيٌّ هذا أو ذاك ؟

وفى العهد القديم أن يوسف قد حبس إخوته ثلاثة أيام ، ثم أطلقهم ليحضروا أخاهم الصغير ، واحتفظ بأحدهم فى السجن كرهينة حتى يعودوا (٣٤) .

أما عن الجزاء الذى اقترحوه بالنسبة لمن يوجد الصُّوَاع فى رحله فقد ذكر العهد القديم أنهم حكموا بأنه يموت ويصبحون هم عبيدًا ليوسف .

والغريب أن يوسف يعقّب على هذا الحكم قائلاً : « نعم ، الآن بحسب كلامكم هكذا يكون . الذى يوجد معه يكون لى عبدا » (٣٥) ، مع أنهم لم يقولوا إن الذى يُعْثَرُ معه على الصُّوَاع يصبح عبدًا ، بل ذكروا أنه يموت وهم يصبحون عبيدا . فهذا تناقض آخر . وبالمناسبة ، فهذا الذى قاله يوسف هو ما جاء فى القرآن . قال تعالى : « قالوا : جزاؤه من وُجِد فى رَحْله فهو جزاؤه » (٣٦) ، أى يؤخذ فيُسْتَرَقّ . ومع هذا فإن مؤلف القصة فى العهد القديم يعود فيقول إنهم بعد أن وُجِد الصُّوَاع فى رحل أخيهم الصغير (شقيق يوسف) قد قالوا ليوسف : « ها نحن عبيد لسيّدى نحن والذى وُجد الطاس فى يده جميعًا » (٣٧) ، ولم يذكروا أنه يموت كما قالوا قبلا .

ومما يختلف فيه القرآن الكريم عن العهد القديم أيضا في هذه القصة أن يوسف في سفر « التكوين » قد صرَّح لإخوته بحقيقته بعدما قُبِض على الصغير بسبب العثور على الصُّوَاع في رحله (٣٨) ، بينما ذكرت سورة « يوسف » أنهم لم يعرفوا أنه أخوهم إلاَّ بعد رجوعهم إلى موطنهم ثم عودتهم كرة أخرى إلى مصر بناءً على طلب أبيهم ، الذى أمرهم أن يذهبوا فيتحسَّسوا أخبار يوسف وأخيه . ولم يكن يوسف هو الذى كشف لهم حقيقته بل هم الذى تعرفوا عليه بعد أنْ قال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » فعندئذ سألوه فى دهشة : « أئنك لأنت يوسف ؟ » ، فأجابهم : « أنا يوسف ، وهذا أخى . قد منَّ الله علينا . إنه من يَتَّقِ ويَصْبِرْ فإن الله لا يُضِيع أجر المحسنين » (٣٩) .

كذلك ليس فى قصة سفر « التكوين » أى ذكر للقميص الذى بعث به يوسف ليوضع على وجه أبيه فى بلده حتى يعود إليه بصره ، الذى كان قد ابيضَّ من الحزن والبكاء عليه (٤٠) . بل الذى فيها أنه حين ذهب إلى مصر للعيش مع يوسف كانت عيناه « قد ثقُلتا من الشيخوخة لا يقدر أن يُبْصِر » (٤١) .

وثمة نقطة أخرى ينبِّه إليها الأستاذ المودودى رحمه الله ، وهى أن القرآن لم يلقب ملك مصر فى عصر يوسف بـ « فرعون » ، بل سمّاه « الملك » (٤٢) . ويشرح العالم الباكستانى هذا بأن ذلك الملك كان من

الهكسوس ، الذين كانوا يحتلون البلاد فى تلك الحقبة والذين لم يكونوا يؤمنون بآلهة المصريين ولايعتنقون دينهم ، بينما كان لقب « فرعون » مرتبطا بذلك الدين . ويمضى موضحـا أن تلقيب العهد القديم لذلك الملك بـ « فرعون » هو إذن خطأ تاريخى (٤٣) .

وبعد ، فقد وضعت هذه المقارنة بين روايتى سفر « التكوين » وسورة « يوسف » أيدينا على عدد من الأخطاء والتناقضات التى يفيض بها العهد القديم . وهذه الأخطاء ناجمة عن أن يد البشر هى التى كتبته بالدرجة الأولى . ومع هذا فقد تسربت أشياء مما فى هذا الكتاب إلى أعمال مفسرينا ، الذين كان ينبغى عليهم ألا يثقوا بما جاء فيه .

ومن هذه الأشياء قول بعض الروايات إن أبوى يوسف اللذين ورد ذكرهما فى قوله تعالى عنه : « ورفع أبويه على العرش » (٤٤) هما أبوه وخالته ، لأن أمه كانت قد ماتت من قبل (٤٥) .

وقد أخذ بهذا مفسر شديد التحرز كالمودودى رحمه الله ، مع أنه حريص فى تفسيره على إبراز أخطـاء الكتاب المقدس ، إذ قال فى تأويل « القمر » فى الرؤيا التى رآها يوسف : « هى زوجة أبيه » (٤٦) . والصواب أنه مادام قد ورد فى القرآن أن يوسف إنما رفع « أبويه » على العرش فينبغى ألا نعير ما جاء فى الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى أى اهتمام .

كذلك فقد أخذ الدكتور محمد البهى بما جاء فى سفر « التكوين » من أنّ العزيز كان خصيًا ، قائلا : « كان العزيز من رجال الحاشية المقرّبين الذين لايباشرون عملهم الخاصّ فى حاشية الملك إلا بعد أن تُزال خصائص الذكورة فيهم » (٤٧) ، مع أنه ليس كلّ من يشتغل فى حاشية الملوك يُخْصَى ، وانما قد يُخْصَى منهم أولئك الذين يشتغلون فى أجنحة الحريم . والعزيز لم يكن خادمًا فى جناح النساء فى قصر الملك ، بل كان يشغل وظيفة إدارية كبيرة لعلها الوزارة . وفى سفر « التكوين » نفسه ، الذى ذكر خصاءه ، أنه كان رئيسًا للشرطة ، أو كما نقول اليوم : « وزير الداخلية » . فكيف يمكن أن يقبل العقل أن يُخْصَى وزير من الوزراء ؟ لقد أراد د . البهى أن يجد لامرأة العزيز العذر فى تهالكها على يوسف ، فردّد ما جاء فى العهد القديم عن خصاء زوجها . وفاته ، رحمه الله ، أنه قد وقع فى حب يوسف نسوة أخريات ، فهل ينبغى أن نقول إن أزواجهن أيضا كانوا خصيانا ؟ ثم من قال إن المرأة لا تخون زوجها إلا إذا كان خصيًا ؟ إن النساء الفارغات العيون كثيرات ، وأمثالهن من الرجال كثيرون .

وعند تناول الطبرسى للآية الكريمة التى تذكر دخول إخوة يوسف عليه لأول مرة نجده ينقل من تفسير على بن إبراهيم كلامًا هو ترديد لما جاء فى سفر « التكوين » من اتهام يوسف لهؤلاء الإخوة بأنهم جواسيس

واحتجاز أحدهم إلى أن يأتوا بأخيهم من أبيهم رهينة (٤٨) . وقد بيّنا أن ذلك لم يرد فى القرآن . بل إن كلام يوسف لهم فى هذا الموقف ، كما جاء فى القرآن ، فيه رقة ولين ، إذ قال لهم : « ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ » (٤٩) . ثم زاد فجعل بضاعتهم (أى أموالهم التى أتوا يشترون بها منه القمح) فى رحالهم حتى يجدوها بعد وصولهم إلى بلادهم (٥٠) . ولا يتفق مع هذا كله أن يتهمهم بأنهم جواسيس . فكان المفروض ألا ينقل أحد من مفسّرينا هذا الكلام . وقد ضعّف الأستاذ أحمد المراغى ما جاء فى سفر « التكوين » من اتهامه إياهم بالتجسس وحجْزه أحدهم عنده إلى أن يعودوا بأخيهم من أبيهم ، ورأى أن ذلك لا يليق بمن دون يوسف ، فكيف به وهو صديق نبى ؟ (٥١) كما ردّ د . محمد محمود حجازى دعوى اتهامه لهم بالتجسس وكذلك دعوى أخذه أحدهم رهينةً إلى أن يأتوه بأخيهم . وإن لم يذكر أين وردت هاتان الدعويان (٥٢) .

الهوامش

١- تكوين / ٢٨ /١٢ - ١٧ .

٢- تكوين / ١٢ / ٢٠ - ٢٢ .

٣- تكوين / ٢٩ / ١ - ١٢ .

٤- تكوين / ١٥ - ٢٥ .

٥- تكوين / ٣٢ / ٢٢ - ٢٩ . وهناك إشارات أخرى فى العهد القديم إلى هذه الحادثة . انظر تكوين / ٣٥ / ١ ، ٧ ، و ٤٨ / ٢ .

٦- تكوين / ٣٤ / ١ ومابعدها .

٧- تكوين / ٣٥ / ٢٢ - ٢٦ ، و ٤٩ / ٤ . والعهد القديم مفعم بهذا الفُحْش العفن الذى يزكم الأنوف ويغثى النفوس بنتنه ورجسه .

٨- تكوين / ٣٨ / ١ - ٢٦ .

٩- تكوين / ٣٨ / ٢٧ - ٣٠ .

١٠- يوسف / ٤ - ٥ .

١١- تكوين / ٣٧ / ٩ - ١١ .

١٢- تكوين / ٣٧ / ١٢ وما بعدها .

١٣- يوسف / ٨ - ١٨ .

١٤- يوسف / ١٨ .

١٥- تكوين / ٣٧ / ٣١ - ٣٥ .

١٦- يوسف / ١٩ .

١٧- تكوين / ٣٧ / ٢٥ - ٢٨ .

18- S. Abul A'la Maududi , The Meaning of the Quran , Vol. V , p.135.

١٩- المرجع السابق / نفس الصفحة . وسوف يعود مؤلف سفر « التكوين » فى أول الإصحاح التاسع والثلاثين فيقول إن الذين باعوه لفوطيفار هم الإسماعيليون .

٢٠- سبق أن أشرنا قبل قليل إلى تناقض آخر عجيب ، حيث ذكر مؤلف سفر « التكوين » مرة أن لابان هو خال يعقوب ، ومرة أخرى بعدها مباشرة أنه أخوه .

٢١- تكوين / ٣٩ / ٧ ومابعدها .

٢٢- يوسف / ٢٣ .

٢٣- تكوين / ٣٩ / ٧ - ١٢ .

٢٤- السابق / ٣٩ / ١٤ .

٢٥- يوسف / ٢٥ .

٢٦- يوسف / ٢٣ .

٢٧- يوسف / ٢٥ .

٢٨- تكوين / ٣٨ / ١٢ .

٢٩- يوسف / ٢٦ / ٢٩ - ٣٥ .

٣٠- تكوين / ٣٩ / ١٩ - ٢٠ .

٣١- الآيات / ٣٠ - ٣٤ .

٣٢- يوسف / ٣٧ - ٤٠ .

٣٣- تكوين / ٤٢ / ١٥ ، ١٧ .

٣٤- السابق / ٤٢ / ١٥ - ٢٠ .

٣٥- السابق / ٤٤ / ١٠ .

٣٦- يوسف / ٧٥ .

٣٧- تكوين / ٤٤ / ١٦ .

٣٨- السابق / ٤٥ / ١ .

٣٩- يوسف / ٨٩ - ٩٠ .

٤٠- يوسف / ٩٣ - ٩٦ .

٤١- تكوين / ٤٨ / ١٠ .

٤٢- يوسف / ٤٣ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٧٢ .

43- S. Abul A'la Maududi , The Meaning of the Quran , Vol. V , p.124.

٤٤- يوسف / ١٠٠ .

٤٥- انظر مثلا تفسير الطبرى / ١٢ / ١٥٢ ، و ١٣ / ٦٨ ، وتفسير الطبرسى / م ٤ / ج ١٦ ، وتفسير الألوسى / ١٢ ، ١٨٠ ، ود. محمد البهى / تفسير سورة يوسف / مكتبة وهبة / القاهرة / ط ١ / ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م / ٥٣ .

46- Maududi , The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 130 .

٤٧- د. محمد البهى / تفسير سورة يوسف / ٢١ .

٤٨- انظر تفسير الطبرسى / م ٤ / ج ١٣ / ٨١ - ٨٢ .

٤٩- يوسف / ٥٩ .

٥٠- يوسف / ٦٢ . وهو ما جاء فى قصة العهد القديم أيضا .

٥١- انظر تفسير المراغى / دار إحياء التراث العربى / بيروت / ط ٢ / ١٩٨٥ م /١٣/ ١١. ومع ذلك فقد عقب بقوله : « إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة » .

٥٢- انظر د. محمد محمود حجازى / التفسير الواضح / مطبعة الاستقلال / ط ٤ / ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م / ١٢ / ٨ .

ملاحظات تفسيرية ولغوية

جاء فى مطلع السورة الكريمة وصف القرآن الكريم بأنه عربى وأنه قد جُعل كذلك رجاء أن يعقله قوم الرسول عليه السلام الذين وُجّهت الدعوة أول ما وُجّهت إليهم . قال تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (١) . وهنا مسألتان : الأولى أن نزول القرآن بالعربية هو جرىٌ على السنة الإلهية فى إرسال كل رسول بلسان قومه ليكون كلامه إليهم مفهومًا فتؤتى الدعوة ثمارها : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم » (٢) ، وإلا لتحججوا بأنهم لا يفقهون ما يدعوهم إليه . ولقد جاء فى القرآن أنه لو أُنزل القرآن بلغة أعجمية لاعترض العرب قائلين : « أأعجمى وعربى ؟ » (٣) أى ما يصح أن يكون القرآن أعجميًا وينزل على قوم لسانهم العربية . كما جاء فيه أنه لو نُزّل القرآن بهذا اللسان العربى على قوم أعجمين ما آمنوا به :« ولو نزّلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » (٤) . إذن فقد نزل القرآن بلغة القوم الذين أُنزل إليهم كى تكون هناك وسيلة اتصال وتفاهم بينهم وبين رسولهم والكتاب الذى حمله إليهم ، وإلاّ كان الأمر عبثا . والمقصود أنه ليس للعرب أى عذرٍ فى عدم إصاختهم للدعوة وإعمال عقولهم فيها وتفهم مراميها ، فقد نزل كتابها بلسان عربى مبين ليس فيه غموض ولا لبس ،

وجاء الكلام فيه على أعلى مراتب الفصاحة ونصاعة البلاغة . أما المسألة الثانية فقد أثارها بعض المفسرين ، إذ تساءلوا عمّا إذا كانت عروبة القرآن تتنافى مع وجود بعض الألفاظ فيه من لغات أخرى . ذلك أن فى القرآن كلمات اختلف العلماء فيها : أهى عربية أم أعجمية ؟ وذلك ك « إستبرق وسِفْر ، وأوّاب ، وتنُّور » مثلاً . فبعضهم قال إنها ألفاظ مشتركة بين العربية وغيرها ، وبعضهم قال إنها أعجمية ولكنها عُرّبت فأصحبت جزءا من لغتنا (٥) . والحقيقة أنه ما من لغة إلاّ وأخذت من اللغات الأخرى القريبة منها والبعيدة عددًا من الألفاظ بحكم الاتصال بمختلف أنواعه بين الأمم واللغات . والذى يرجع إلى المعاجم اللغوية المفصلة فى كل لغة يجد أنها تنصُّ على الألفاظ التى استعارتها لغتها من غيرها وتشرَّبتها ، سواء بقيت على صورتها الأصلية قبل الاستعارة أوْ لا . ولغتنا مثل غيرها من الألسنة فى ذلك : أعطتها وأخذت منها . ولا يقدح فى عروبة أى نص عربى أن تكون أصول بعض ألفاظه غير عربية ، مثلما لا يُخْرِج قصيدةً فارسيةً عن فارسيتها أن يكون فيها عدد من الألفاظ العربية ، إذ قد دخل فى اللسان الفارسى بعد الإسلام عدد هائل من تلك الألفاظ ، ومثلما لا يقدح فى إنجليزية مقال إنجليزى مثلاً أن تكون فيه ألفاظ بل وأيضا عبارات يونانية ولاتينية وفرنسية وغيرها . ونحن الآن نستخدم ألفاظًا ك « تلفزيون (أو تلفاز) ، وتكنولوجيا (أو تقنيّة) ، والبيانو

(أو البيان) ، وكلَمه بالتلفون (أو تلْفن له) » ... إلخ . ولا يقول عاقل بل لا يدور فى ذهنه أن وجود مثل هذه الألفاظ فى نص عربى يتعارض فى شىء البتة مع عروبته . فالقرآن إذن عربى ، وعربى مبين ، أيًا ما كان رأى العلماء فى بعض ما تضمنه من مفردات .

ولقد كنتُ فى بداية أمرى أستغرب القول بوجود ألفاظ مشتركة بين عدة لغات مختلفة . ثم تنبهت إلى أن معظم اللغات التى يذكرها علماء القرآن فى هذا السياق هى لغات سامية ، أى ذات أصل واحد ، كالحبشية والسريانية والعبرية . فمن الطبيعى أن تكون بينها ألفاظ مشتركة ، وإن اختلفت فى كثير من الأحيان صورها من لغة إلى أخرى . ثم هى لغات متجاورة ، فأحْر بها أن تأخذ من بعضها البعض أول ما تأخذ . وهى فى ذلك مثل الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية ، التى ترتدّ فى أصلها إلى اللسان اللاتينى ، ومن ثم تكثر فيها الألفاظ المشتركة بحكم هذا الأصل ، وبحكم الجوار الجغرافى أيضا .

وفى الآية الرابعة نجد أن القرآن الكريم قد تحدث عن الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر التى رآها يوسف فى المنام ساجدة له بلفظ جماعة الذكور العقلاء : « إنى رأيتُ أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ، رأيتُهم لى ساجدين » . وقد ذكر الطبرى أنها عوملت تلك المعاملة لوقوع السجود منها ، وهو مما لا يقع إلاّ من العقلاء ، مثلما خاطبت نملةٌ

جماعتها قائلة : « يا أيها النمل، ادخلوا مساكنكم » بضمير الذكور العقلاء (٦) . ويمكن أن نضيف إلى ذلك قوله تعالى : « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّدًا لله وهم داخرون ؟ » (٧) ، وقوله عزَّ من قائل : « ثم استوى (أي رب القدرة والجلال) إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طَوْعًا أو كَرْهًا . قالتا : أتينا طائعين » (٨) . وينبغي أيضا ألا ننسى أن الكواكب الأحد عشر والقمرين هي في الحقيقة جماعة من البشر . صحيح أنها ليست كلها ذكورًا لأن فيها أم يوسف ، لكننا نعرف أنه إذا اختلط المذكر والمؤنث في جماعةٍ ما استُعْمِلت عندئذ ضمائر جمع الذكور .

وذكر الألوسي إلى جانب هذا التفسير ما ذهب إليه جماعة من الفلاسفة بناءً على هذه الآية ونظائرها في القرآن الكريم من أن الكواكب أحياء ناطقة . ولم يستبعد الألوسي ذلك ، ولم يجد فيه إنكارًا لما هو من ضروريات الدين (٩) . بيد أنني أرى الاكتفاء بالتفسير السابق ، فإن القول بحياة الكواكب ونطقها قد أصبح من مخلَّفات الماضي ، إذ الأرض مثلاً من الكواكب ، ولايقول أحد بأنها من الكائنات الحية الناطقة . وربما لم يكن أولئك القدماء يعدّون الأرض كوكبا ، ولذلك لم يتنبهوا إلى فساد قولهم . ولكن هاهم أولاء البشر قد وصلوا إلى القمر ، وهو عند القدماء كوكب من الكواكب ، ووجدوه مثل الأرض جمادًا لا يعقل ولا

يتكلم . والكواكب كلها كذلك . أما النجوم فهى كتل هائلة من النيران الملتهبة ، فهى أيضا مثل الكواكب لا عقل لها ولا حياة . وعلى أية حال ، فليست الكلمة فى هذا الموضوع للفلاسفة النظريين ، وإنما للعلماء المتخصصين فى الفلك وعلم طبقات الأرض ، وهما العلمان اللذان يدرسان هذه النقطة .

والمعروف أن إخوة يوسف كانوا أحد عشر ، والرؤيا نفسها قد ذكرت أحد عشر كوكبا . ولكن قلم د. محمد البهى ، رحمه الله ، يسهو فيجعلهم تسعةً من غير بنيامين ، أى أنهم به عشرة (١٠) ، فأحببتُ أن أنبه إلى هذا السَّهْو .

وكذلك يذكر الأستاذ المودودى ما جاء فى الكتاب المقدس من أنه كان ليعقوب عليه السلام أربع زوجات وأن يوسف وبنيامين من زوجة واحدة وباقى أبنائه من الزوجات الأخريات ، ثم يقول إن إشارات القرآن تؤكد هذا (١١) . والحق أنه ليس فى القرآن أية إشارة إلى عدد زوجات يعقوب من قريب أو بعيد ، ولا إلى أن اسم شقيق يوسف هو بنيامين . فكان ينبغى على المودودى ، رحمه الله ، ألا يقول هذا . والكتاب المقدس على أية حال غير أهل للثقة ، إذ عبثت به الأيدى كما ذكر القرآن فى مواضع متعددة ، ومن ثم فالأحجى ألا نركن إليه فى مثل هذه التفاصيل .

ولقد وقف الألوسى عند مناداة يعقوب ليوسف عليهما السلام بـ « يا

بُنَىَّ » ، وقال إنه قد صُغِّر للشفقة ، ثم جوّز أن يكون التصغير بسبب صغر سنّ يوسف أيضا (١٢) . والواقع أن الابن لم ينادَ فى أى موضع من القرآن إلاَّ بهذه الصيغة التصغيرية أيًا كانت سنُّه وأيًا كان الموقف الذى يخاطبه فيه أبوه : فنوح مثلا ينادى ابنه الكافر ليركب معه فى الفُلْك حتى لا يكون من المغرقين بـ « يا بُنَىَّ » (١٣) ، وإبراهيم ينادى اسماعيل أيضا حين رأى فى المنام أنه يذبحه قائلاً : « يا بُنَىَّ » (١٤) ، وكذلك لقمان يخاطب ابنه وهو ينصحه بتوحيد اللّه واقام الصلاة وإيتاء الزكاة بقوله : « يا بُنَىَّ » (١٥) .

وفى تفسير عبارة : « وتكونوا من بعده قومًا صالحين » فى كلام إخوة يوسف حين تآمروا على قتله أو طَرْحه فى أرض بعيدة ، إذ قالوا : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يَخْلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين » (١٦) ، نجد بعض المفسرين يقولون إن المقصود أنهم بعد أن يقتلوه يتوبون من جريمتهم وبهذا يصبحون قومًا صالحين بعد فسادهم (١٧) . ومن البيّن تهافت هذا التفسير ، فإنَّ عبارة « وتكونوا من بعده قوما صالحين » معطوفة على « يَخْلُ لكم وجه أبيكم » ، وهذه جواب الأمر فى « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا » . ومعنى ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن تخلصهم من يوسف سوف يترتب عليه أن يخلو وجه أبيهم لهم وأن يكونوا قومًا صالحين . فأمّا أن خلوّ وجه أبيهم لهم سوف يترتب ،

فيما يعتقدون ، على تخلصهم من يوسف فهو صحيح . ولكن ليس صحيحًا أن صلاحهم سوف يترتب ، ولا حتى فى اعتقادهم ، على هذا الفعل نفسه ، إذ كيف يترتب الصلاح على الجريمة ؟ إن ذلك غير معقول . بل المعقول أن يكون المقصود بالصلاح هنا هو صلاح حالهم مع أبيهم واستراحة نفوسهم من عناء ما كانت تكابد من الغيظ والحقد لإيثار ذلك الوالد أخاهم الصغير عليهم . ولو كان المراد صلاح التوبة لقالوا مثلا : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يَخْلُ لكم وجه أبيكم ، ثم توبوا بعدها تكونوا قومًا صالحين » .

ويتساءل بعضهم : كيف يلعب إخوة يوسف رغم أنهم أنبياء ؟ ويأتى الجواب بأنهم لم يكونوا قد أصبحوا أنبياء بعد (١٨). ويقول الزمخشرى إن يعقوب قد استجاز لهم اللعب لأن لعبهم كان سباقا ونضالاً لتدريب أنفسهم على القتال ، ولم يكن لهْوًا . وإنما سموه لعبًا لأنه قد اتخذ صورة اللعب (١٩) . وتعليقنا على هذا وذاك أنَّه ما من دليل حاسم على أن القرآن قد ذكر أحدًا من إخوة يوسف بين الأنبياء والمرسلين ، فلا داعى من ثم لإثارة هذه القضية . ثم لا ينبغى أن يفوتنا أن اللَّعب فى حد ذاته ليس فيه ما يخل بالدين ، بل هو أمر حيوى للأطفال والصبيان والشباب ما داموا لا ينحرفون به إلى الفساد ، وذلك لتصريف الطاقة وتنشيط الجسم والحفاظ على صحتهم البدنية والنفسية . وربَّما ذهب من ذهب من

المفسرين إلى ما قالوه لمجىء « اللعب » فى القرآن فى معظم الحالات فى سياق التشنيع والتقريع وارتباطه فيه باللهو المذموم ، كما فى قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب : « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُوًا ولعبا . ذلك بأنهم قوم لايعقلون » (٢٠) ، وقوله سبحانه : « وذروا الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرّتهم الحياة الدنيا » (٢١) . غير أن اللعب هنا ليس هو نفسه فى قصة يوسف وإخوته . إن هذا لعب الجرى والنشاط ، وهو لعب برىء ، أمّا ذاك فلعب الاستهزاء بالدين ، وهو كفر شنيع .

كذلك أثيرت مسألة نبوة إخوة يوسف مرة أخرى فى بعض كتب التفسير عند الحديث عن مؤامرتهم على يوسف . وقد ذكر الطبرسى أن أكثر المفسرين يرون أنهم كانوا أنبياء ، وردَّ بعضٌ آخرون بأنهم لم يكونوا كذلك لأن الأنبياء لا تقع منهم القبائح . وأجاب من قالوا بنبوتهم إنهم حين تآمروا على التخلص من يوسف لم يكونوا قد بلغوا بعد وأصبحوا مكلَّفين (٢٢) . وقد سلف قبل قليل أن قلت إنه ليس ثمة دليل جازم على أن أحدا من إخوة يوسف قد ذكره القرآن بين الأنبياء والمرسلين ، فلا داعى إذن للخوض فى هذا الموضوع . إن فريقا من العلماء يظن أن الأسباط الذين ذكرهم القرآن بعد يعقوب فى بعض آياته هم أولاده (٢٣) . لكن ما من دليل قاطع على هذا .

ونتريث أمام الألف واللام فى « الذئب » فى قول يعقوب عليه

السلام : « واخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » (٢٤) وجواب أبنائه عليه : « لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون » (٢٥) ، ثم قولهم بعد ذلك : « فأكله الذئب » (٢٦) ، ونتساءل : أى نوع من الألف واللام هذه ؟ ذلك أنها ليست للجنس ، إذ ليس المقصود الذئاب جميعها ، ولا هى للحقيقة ، إذ ليس المراد ماهية الذئب ، ولا الذئب هنا ذئب معهود حتى يقال إنها ألف ولام العهد . وأعتقد أنها فى هذا الاستعمال وأشباهه إنما هى للمشاع ، لأنه لا يُراد فى هذه الحالة ذئب بعينه ، بل أى ذئب ، فهى أقرب ما تكون إلى التنكير (٢٧) . وقد حوَّم حول هذا المعنى الشيخ الطاهر بن عاشور فقال إن المراد ذئب غير معيَّن ، ونفى أن يكون المقصود الجنس لأن الجنس كلّه لا يأكل ، إنما يأكل فرد واحد من ذلك الجنس . ولكنه مع ذلك قد جعل هذه الألف واللام لتعريف الحقيقة والطبيعة ، الذى فسَّره بأنه تعريف الجنس (٢٨) . يعنى أنه عاد فهدم ما قاله .

وفى تفسير كلمة « ربّى » فى قول يوسف عليه السلام لامرأة العزيز حين راودته عن نفسه وغلّقت عليه الأبواب ودعته إليها : « معاذ الله ! إنه ربى ، أحسن مثواى » (٢٩) نجد من يقول إن يوسف يريد سيّد القصر ، الذى كان قد اشتراه وأكرم مثواه وأوصى زوجته به خيرا ، فهو ربه ، أى سيده ومالكه ، ونجد كذلك من يقول : بل المقصود هو الله سبحانه .

ذلك أن الكلمة لها هذا المعنيان . وأرى أنها هنا تحتمل المعنيين كليهما . وذلك من عجائب القرآن الكريم ، إذ إنه بكلمة واحدة قد دلّ على شيئين مختلفين معا فى وقت واحد ، فإن الله سبحانه قد أحسن مثوى يوسف ، وكذلك العزيز . ويوسف يخشى الله سبحانه وعقابه ويستحى أن يراه حيث لايحبه أن يكون ، وكذلك لا تطاوعه نفسه الكريمة أن يخون سيده الذى أحسن إليه .

ولكن الأستاذ المودودى ، رغم اعترافه بأن الكلمة تعنى هذا وذاك ، يرفض أن يكون المقصود بها فى الآية سيّد القصر ، وذلك لسببين : الأول أنه لا يليق بنبى مثل يوسف عليه السلام أن يمتنع عن ارتكاب إثم ما مراعاةً لاعتبار أى شخص آخر غير الله . والثانى أنه لم يحدث أن قال نبى من الأنبياء فى القرآن عن أحدٍ آخر غير الله إنه « ربّى » (٣٠) .

وقد قلت قبل أسطر قليلة إن الكلمة تحتمل فى رأيى المعنيين كليهما ، وإن هذا من عجائب القرآن فى استعمال اللغة . ولكن فلنفترض أن يوسف لم يقصد إلاَّ سيده رب القصر ، فهل هذا مما لايليق به عليه السلام كما يقول الأستاذ المودودى ؟ ولم لا يقال إنه قد خاطب امرأة العزيز بما تفهمه وتقدّره لأنها لم تكن تؤمن بالله والآخرة أو لا تبالى بذلك مثلا ؟ ثم إن نفور يوسف عليه السلام من خيانة سيده فى عِرْضه هو من الوفاء الذى تقدّره السّماء وتجزى عليه خير الجزاء . وكذلك من قال إن



قول يوسف لامرأة العزيز إنه لا يريد الإساءة إلى سيّده يعنى أن خشية الله لم تكن تملأ قلبه ساعتذاك ؟

أمّا احتجاج المودودى ، رحمه اللّه ، بأن آيًا من الأنبياء فى القرآن لم يَدْعُ أحداً سوى الله بـ « ربّى » فإننا نقول فى الرّد عليه : إن السبب هو أن أحداً من هؤلاء الأنبياء حاشا يوسف لم يُبَعْ بيع الرقيق . ثم إنه لم يحدث أيضا فى أى سورة من القرآن غير هذه السورة أن قال نبى من النبيين عن أى كائن عدا اللّه إنه رب أحد من البشر . ومع ذلك فإن يوسف عليه السلام قد استخدم هذه الكلمة بهذا المعنى فى حديثه للسجينين اللذين كانا معه فى السجن : « يا صاحبى السجن ، أمّا أحدكما فيسقى ربه خمرا » (٣١) ، وفى قوله للسجين الذى عُفِى عنه منهما : « اذكرنى عند ربّك » (٣٢) ، ويقصد به سيده ملك البلاد ، وكذلك فى خطابه للرسول الذى بعث به الملك ليستدعيه له من السجن : « ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتى قطّعْن أيديهن ؟ » (٣٣) .

وبعد ، فهذا كلّه لو أنه استعمل كملة « ربّى » بالعربية . لكنه بيقين كان يتكلم لغة أهل مصر فى ذلك الوقت أو لغة حكامها . ولا ندرى أية كلمة تلك التى تلفّظ بها فى هذا المقام . وأعتقد أنها كانت أيضا لفظة تؤدى هذين المعنيين . وهذا متحقق مثلاً فى كلمتى « Lord » الإنجليزية

و « Seigneur » الفرنسية . وأغلب الظن أن ذلك يصدق أيضا على لغات أخرى .

ثم نأتـي إلى الآيـة التى أثارت تأويلات واسعة ، وهى قوله تعالى : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » (٣٤) . وقد فسّرها فريق على أنه همّ بها كما همّت به ، أى استجاب لإغرائها ومضى فى ذلك شوطا بعيدا لولا أن الله سبحانه قد أنقذه بمعجزة ، إذ شاهد وجه أبيه وعلى وجهه علائم النفور من تصرفه أو دفعته فى صدره يد لا يدرى من أين جاءت فمنعته من أن يمضى فيما كان فيه أو جاءه جبريل بأمر من الله فمنعه من الإثم . وهذا هو برهان ربه عندهم . وقال آخرون إنها قد همت فعلا به ، أما بالنسبة إليه هو فلولا أنه رأى برهان ربه لهمّ بها ، أى أنه لم يهمّ لأنه رأى ذلك البرهان . ورأى بعض ثالث أنها همّت به فتعرّضت له وأخذت تغريه بمفاتنها وتحرّضه على الفاحشة ، أمّا هو فقد تحركت مشاعره فقط . فهذا هو الهمّ الذى كان منه ولم يتجاوز الأمر عنده هذا بفضل ما رأى من « برهان ربه » ، الذى يفسّرونه بأنه إيمانه بالله وحياؤه وخشيته منه . وأولتها جماعة بأنها همّت به همّ فاحشة (أو همّ ضرب لاستعصائه عليها ونفوره مما تدعوه إليه) ، وهمّ أن يضربها ، ولكن برهان ربه منعه من إيذاء سيدته (٣٥) .

ويفسّر عبدالكريم الخطيب « برهان ربّه » فى الآية بأن يوسف قد

علم بوصول سيده من « إشارة معروفة كان يُشار بها عند مجيء العزيز إلى بيته ، حيث يكون ذلك إعلانا لخدمه وحشمه وحرسه ليكونوا جميعًا فى هيئة استعداد لاستقباله » (٣٦) .

ومعنى ذلك أن هم يوسف عليه السلام كان همَّ فعل ، وهذا هو ما يقوله الكاتب فعلاً (٣٧) . ولكنَّ فى النفس من هذا التأويل أشياء : منها أن الآية تقول إنه « رأى » برهـان ربّه . وبطبيعة الحال لم يكن ممكنا أن « يرى » يوسف ما يدل على مجيء سيده لأنه كان مع امرأة العزيز فى غرفة كانت قد غلّقتْ أبوابها عليهما تغليقا . ثم هل يقال عن مجيء ربّ البيت إنه « برهانه » ؟ وثالثة الأثافى أنه قد جعل النبى الكريم يهمُّ همَّ فعل ، وهذا ما لا نفهم وقوعه من نبى . صحيح أنه بشر كما يقول الكاتب لامشاحَّة فى ذلك ، بيد أنه قد سها فيما يبدو عن أن الأنبياء بشر مصطفَوْن اجتباهم الله وانتقاهم وربَّاهم على عينه . فكيف يمكن أن يقدم أحدهم على أمر كهذا ؟ كذلك لو كان قد شعر يوسف عليه السلام بمجيء سيده لكانت هى قد شعرت به أيضًا ، أو لنبَّهها هو إلى أن زوجها قادم . وردّ الفعل الطبيعى فى هذه الحالة أن تبوخ رغبتها لا أن تطارده عندما يريد الخروج . ثم لماذا يجرى نحو الباب أصلاً ؟ إن أول ما يفعله الإنسان فى هذه الحالة هو أن يرتدى ملابسه ويسوّى شعثه ويلم شتات نفسه حتى يبدو طبيعيا لمن يراه عندئذ ، لا أن يبتدر الباب ، وإلاَّ كان

كمن ينادى على نفسه كى يشهد الناس فضيحته . وأيضا هل يمكن أن يدّعى الكاتب أنه أدرى من امرأة العزيز بما وقع ؟ لقد أعلنت للنسوة اللائى لُكْنَ عرْضها وشنّعن عليها فى مجالس المدينة أنها قد راودته عن نفسه « فاستعصم » (٣٨) ، وهدّدت بأنه إن لم يفعل ما تأمره به فسوف تسجنه وتذلّه . إن امرأة العزيز تقول إنه « استعصم » عندما راودته عن نفسه ، والأستاذ الخطيب يقول : بل همّ بها هم فعل ، أى استجاب لها . وامرأة العزيز هى المصدّقة لأنها هى التى كانت مع يوسف ورأت ما فعله ، أما الأستاذ الخطيب فهو يرجم بالغيب . ولقد تضرّع يوسف إلى ربّه قائلا فى حرارة إن السجن أحبُّ إلى نفسه مما تدعوه امرأة العزيز وصواحبها إليه من فحشاء (٣٩) . فهل هذا كلام رجل استجاب للإغراء وكاد أن يرتكب المنكر ؟ وهل كان يوسف عليه السلام ليصرّ على أن يُفْتح ملف هذا الموضوع الذى كان قد طُوى من سنين وأن يعيد الملك البحث فيه من جديد كى يعلم موقفه تجاه محاولات امرأة العزيز وصواحبها لإيقاعه فى حبائل فتنتهن وهو يعرف قبل غيره أنه قد استجاب لسيّدته وكاد أن يواقع الفاحشة ؟ (٤٠) إن هذا كله ضد منطق الأشياء . ولقد شهد هؤلاء النساء أمام الملك بعفّته وطهارة ثوبه من كل سوء : « قلن : حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء » (٤١) . لكل ما مرّ نرفض رفضا قاطعا ما قاله الكاتب .

ولو فحصنا النص القرآنى جيدا فسوف يتضح لنا الآتى :

- أن القرآن قد أكدّ همّ امرأة العزيز بـ « اللام » و « قد » .

- أنها هى البادئة ، حيث ذُكر همُها أولا .

- أن كل ما قيل عن يوسف هو : « وهم بها » ، فهمُه مترتب على همّها .

- أن مسارعة الآية إلى التعقيب على ما ذكرته عن همه بـ « لولا أن رأى برهان ربه » يدل على أن المسألة لم تخرج عن حركة المشاعر تحت وطأة الاغراء الهائل من تلك المرأة ذات السلطان والجمال .

- أنه حين أحسّ بهذه الحركة فى نفسه فرّ هاربا من وجه الفتنة الشيطانية نحو الباب ، ولكن تلك المرأة فى رغبتها الجامحة وكبريائها الجريحة عزّ عليها أن يفلت منها فطاردته واستطاعت أن تمسك بقميصه من الخلف وتشده منه فتمزقه .

وحينما يُفاجآن بوجود العزيز عند الباب تسارع إلى اتهام يوسف عليه السلام بأنه أراد بها سوءا وتلح على إنزال أشد العقاب به . ونص كلامها هو : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يُسْجَن أو عذابٌ أليم ؟ » (٤٢) . ويرى بعض المفسرين أن « ما » فى الجملة يمكن أن تكون نافية (٤٣) . ولست أرى إلا أنها للاستفهام ، لأنها لو كانت نافية لكانت الجملة خبرية وأشبه أن تكون جوابا على لسؤال وُجّه إلى المرأة من

زوجها يستفتيها فيه عما ينبغى إيقاعه من عقاب بمن أراد بأهله سوءا . ومثل هذا السؤال لم يقع بطبيعة الحال. إنما هى التى تسأل . وقد وجدت كل الترجمات القرآنية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية) التى كانت معى وأنا أكتب هذه الدراسة قد ترجمت كلام المرأة على أنه استفهام .

ويدافع يوسف عن نفسه قائلا إنها هى التى راودته . وهنا يقول القرآن : « وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقتْ وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قُدَّ من دُبر فكذبتْ وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبر قال : إنه من كيْدكُنَّ . إن كيدكن عظيم * يوسف ، أعْرِضْ عن هذا . واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » (٤٤) . فمَنْ ذلك الشاهد الذى من أهلها ؟ يقول البعض إنه طفل رضيعٌ أنطقه الله بهذه الشهادة . ويقول آخرون إنه رجل من أهلها ذو حنكة وتجربة (٤٥) . وهذا التفسير الأخير هو الذى أميل إليه ، إذ لو كان الشاهد طفلا رضيعا لما كان ثمة حاجة إلى كل هذا الشّرح من جانبه ، بل يكفى أن ينطق قائلا إن المرأة هى الخاطئة ، ويوسف برىء . ذلك أن نطق الرضيع معجزة ، وهى كافية فى حسم المسألة . أما أن تقع معجزة مثل هذه ويكون كل ما تأتى به هو أن ترشدهم إلى طريق التحقيق فى المسألة ، وهو أمر يستطيع أى إنسان بعد أن يسمع رواية كلا الطرفين أن يتوصّل إليه ، فلا معنى له . كذلك لو كان

الشاهد طفلاً رضيعًا لما كان ثمة معنىً للنصّ على أنه من أهلها ، إذ الطفل الرضيع ليس محل اتهام بالمحاباة ليوسف حتى يقال إنه من أهل الزوجة وينبغى من ثم تصديق شهادته لأنه لا مأرب له فى اتهام قريبته وتبرئة يوسف بالباطل . وإنما يكون للنصّ على قرابة الشاهد للزوجة معنىً إذا كان رجلاً كبيرا يمكن أن تتوجه إليه التهمة بالكذب والتزوير . وكذلك بعيدٌ أن ينطلق رضيع فى الكلام فيلتمس من يوسف تجاهل ما حدث والإغضاء عنه كأنه لم يكن ، ويبكّت المرأة على زلتها ويأمرها بالاستغفار (٤٦) . وهل كانت المرأة بعد هذا الحاث الإعجازى ، لو كان حدث ، لتصرّ على مضيّها فى مراودة يوسف عن نفسه ، وإعلان ذلك أمام صاحباتها ، وتهديده إن لم يخضع لها ويجارها فى نزواتها أن تسجنه وتذلّه ؟ إن ذلك بعيد .

وللأستاذ عبدالكريم الخطيب رأى آخر فى ذلك الشاهد ، إذ يقول إنه زوجها نفسه . وحجته أنه لا يُعْقَل أن يستدعى العزيز أهل الرأى والحكمة فى دولته ويأخذ رأيهم فى هذا الحدث ، وإلا فضح نفسه وأهله على الملإ (٤٧) . ولكن من قال إن العزيز قد استدعى أهل الرأى والحكمة فى دولته لأخذ رأيهم فى هذا الأمر ؟ لقد كان الشاهد من أهلها . ومن الطبيعى جداً أن يلجأ الزوج فى هذه الحالة إلى رجل عاقل من أقرباء زوجته . ومثل هذا القريب لن يفتح فمه بكلمه يفضح بها قريبته .

وهذا إن كان العزيز هو الذى استدعاه ، إذ من الجائز جدا أنه كان موجوداً عند وقوع الحادثة أو نمت إلى علمه على نحو أو آخر فجاء يستطلع الأمر ويدلى برأيه . كذلك فلو كان الشاهد هو العزيز نفسه أكان القرآن ينكّره وبخاصة أنه كان حاضراً الموقف ؟

وفيما يتصل بقول الشاهد الذى من أهل امرأة العزيز عن كيد النساء : « إن كيدكنّ عظيم » (٤٨) يقول بعض العلماء إنه يخاف من النساء أكثر ممّا يخاف من الشيطان ، لأن الله تعالى يقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » (٤٩) ، بينما يقول إن كيد النساء كيد عظيم (٥٠) . وهذه مقارنة خاطئة ، فليس الكلام فى الحالتين لله سبحانه، بل الذى وصف كيد النساء بأنه عظيم إنما هو قريب زوجة العزيز ، أمّا وصف كيد الشيطان بالضعف فهو لله سبحانه . فلا يصح إذن أن يُفهّم من ذلك أن كيد المرأة أعظم من كيد الشيطان . وكيف يكون كيدها أعظم والشيطان هو الذى يوسوس لها ؟ إن فى هذا تجنيا على المرأة ، التى إذا كان لها كيد فللرجل أيضا كيده . وكثيراً ما يغلب كيْدُه كيْدها .

وتمسك بعض النسوة فى المدينة بسيرة امرأة العزيز فى مجالسهن ويسلقنها بألسنة حداد مشنعات عليها بأن حبها لخادمها قد أفقدها رشدها وأنساها مكانتها وكرامتها . وذكر الزمخشرى أنهن « كن خمسًا :

امرأة الساقى ، وامرأة الخبّاز ، وامرأة صاحب الدوابّ ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب » (٥١) . أمّا من أين له أنهن كن خمسًا وكن هؤلاء النسوة بالذات ، فذلك ما لا أدريه . إن من المستبعد جدا أن يجرؤ هؤلاء النسوة ، وهن زوجات بعض خدم القصر ، على لوك سمعة امرأة العزيز هكـذا جهـاراً فى المجالس ، وهو ما تعبّر عنه الآية الكريمة بقولها : « فى المدينة » . وكذلك من المستبعد جداً أن يكون رد فعل امرأة العزيز كل هذه المبالاة بهن ودعوتهن إلى قصرها (وهن مجرد زوجات بعض الخدم) وإعداد متكإ لهنّ . إن مثلها لا تتصرف هذا التصرف إلا تجاه نساء من طبقتها . أما أمثال أولئك النساء فليس لهن عندها إلا التنكيـل بهن وبأزواجهن أيضًا . ويؤكد ما قلناه أن أولئك النسوة ، بعد أن رأين يوسف وشاهدن وسامته الطاغية ، قد راودنه عن نفسه . ولايمكن أن تطمح أبصار أولئك الخوادم إلى منافسة امرأة العزيز فى الفتى الذى تعشقه كل هذا العشق . إنما هن نساء من نساء الطبقة المسماة بالراقية (٥٢) .

وقد جاء ذكر اسم « العزيز » لأول مرة على لسان هؤلاء النسوة . ويشرحه الطبرى بأنه هو المَلِك ، وأنه مأخوذ من العزّة (٥٣) . فأما أنه مشتق من العزّة فهذا من الوضوح بحيث لا يحتمل أن يخالف فيه مخالف . ولكن هل العزيز هو الملك ؟ لقد أصبح يوسف عليه السلام هو

أيضا بعد ذلك عزيزا على ما تذكر الآيتان ٧٨ ، ٨٨ ، إذ خاطبه إخوته أكثر من مرة بـ « يا أيها العزيز » . والذى عيَّنه فى هذا المنصب هو الملك نفسه ، بما يفيد أن « العزيز » دون « الملك » . ومن جهة ثانية فقد كان عمل يوسف بنص الآية هو الإشراف على خزائن الأرض ، بينما سلطان الملك يشمل كل شىء لا الخزائن وحدها . ثم لو كان العزيز هو الملك أكان القرآن يجهِّله إلى درجة أن يصفه بأنه « الذى اشتراه من مصر » ؟ (٥٤) ثم إن قول الملك عن يوسف حينما كان فى السجن : « ائتونى به أستخلصْه لنفسى » (٥٥) يوحى بقوة أنه لم يكن يعرفه من قبل . وهذا لا يكون لو أنه هو الذى اشتراه وعاش يوسف معه هو وامرأته عدداً من السنين .

ويقول المودودى إن « العزيز » هو ترجمة للقبٍ كان يطلق على أصحاب المناصب الكبيرة فى مصر آنذاك ، كما نقول اليوم : « صاحب المعالى » (٥٦) . أما العهد القديم ففيه أن ذلك الرجل المسمَّى بـ « العزيز » فى القرآن كان رئيسًا لشرطة فرعون ، كما مرَّ بنا . ويقول الأستاذ سيد قطب إنه كان كبير الوزراء (٥٧) . أما بالنسبة ليوسف فيقول المودودى إنه قد أصبح « مَلِكا » . ويستدل على ذلك بما جاء فى الآية ٧٢ على لسان المنادين الذين أعلنوا ضياع الصُوَاع ، إذ « قالوا : نفقد صُوَاع الملك » (٥٨) . لكن ليس هناك ما يدل على أن الملك هنا هو

يوسف . وكيف يكون ملكًا وهناك ملك آخر هو الذى جعله على خزائن الأرض ؟ ومما يدل على أن يوسف ليس هو المقصود بالملك فى الآية قوله سبحانه تعليقا على استبقائه عليه السلام شقيقه معه بعد العثور على الصواع بين أمتعته : « كذلك كِدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله » (٥٩) . فَذِكْرُ « الملك » مع يوسف فى جملة واحدة يدل على أنهما شخصان مختلفان . كذلك فات الأستاذ المودودى ، رحمه الله ، أن إخوة يوسف قد تكرر نداؤهم له بعد ذلك بـ « يا أيها العزيز » (٦٠) وليس بـ « يا أيها الملك » . ولا يُعْقَل أن ينادى الملك بلقبٍ ينادى به كل أصحاب المناصب الكبيرة .

وبالنسبة لجلوسه عليه السلام على العرش ، الذى يقول المودودى إنه دليل على أن يوسف كان « مَلِكًا » فعلا (٦١) ، فالحق أنه ليس فى القرآن أنه قد جلس على العرش ، بل هذا هو ما فهمه المودودى ، رحمه الله ، من قوله تعالى عنه عليه السلام فى الآية ١٠٠ : « ورفع أبويه على العرش » . وقد يكون الملك أراد أن يكرمه فى شخص أبويه فسمح له مثلا أن يجلسهما على عرشه . وجاء فى بعض الروايات أن الملك خرج مع يوسف لاستقبال أبويه (٦٢) . فهذا لون آخر من حفاوته به . وقال الزمخشرى عن العرش : « يجوز أن يكون قد خرج فى قبة من قباب الملوك التى تُحْمَلُ على البغال فأمر أن يُرْفَع إليه أبواه ، فدخلا عليه القبة

فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه » (٦٣) . ويقول عبد الله يوسف على ما معناه أن المقصود كرسى مخصوص يوضع فى الصدارة فى الاحتفالات (٦٤) ، أى أنه ليس عرش الملك .

كذلك فهم المودودى من قول يوسف فى الآية ١٠١ : « ربّ ، قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث » أنه كان ملكا (٦٥) . وأعتقد أن هذه أيضا لا تدل على ما قال ، فهناك فرق بين قوله عليه السلام : « آتيتنى من الملك » (باستخدام « من » التبعيضية) وبين قوله تعالى عن داود عليه السلام : « وآتاه الله الملك والحكمة » (٦٦) وقوله كذلك عن الذى حاج إبراهيم فى ربه إنه قد : « آتاه الله المُلْك » (٦٧) مثلا بدون « منْ » هذه ، التى أرى أن ورودها فى كلام يوسف عليه السلام يوحى بأنه لم يكن فى يده كل المُلْك ، ومن ثم لم يكن ملكا ، بل كان فى يده بعض المُلْك فقط متمثلا فى إشرافه على خزائن الأرض .

فإذا عُدْنا إلى مجلس امرأة العزيز مع صويحباتها نجد القرآن يقول فى وصف شعورهن عندما رأين جماله الطاغى إنهن لمّا رأينه « أكْبرْنه » ... إلخ (٦٨) . وقد نُسبت إلى ابن عباس رواية تقول إن « الإكبار » هنا معناه أنهن حضْن عندما رأينه (٦٩) . وهو تفسير سخيف متهافت ، لأن « أكبرنه » على هذا التفسير معناه : « حضْنه » ، أى

حِضْن يوسف ، وهذا مما لا يُعْقَل ، إذ كيف تحيض امرأة إنسانًا ؟ إنها تحمل به أو تضعه . أما أن تحيضه فهذا كلام لامعنى له . أما قول بعضهم إن الهاء فى « أكبرنه » هى هاء السكت فهو تمحُّل ظاهر ، لأن الهاء هنا ليست واقعة فى آخر الجملة ، فضلاً عن أنها مضمومة لا ساكنة ، فهى إذن هاء الضمير . وقد ردَّ الطبرى بيتا شعريا ورد فيه الفعل « أكبر » بمعنى « حاض » ، وقال إنه لا أصل له لأنه ليس بالمعروف عند الرواة (٧٠) . ثم إن الذين قالوا إن النسوة قد حِضْن عند رؤيتهن يوسف أرجعوا ذلك إلى انبهارهن بوسامته . وهذا غير مفهوم ، لأن الحيض ليس علامة على إعجاب المرأة بالرجل . إنما هو عَرَض بيولوجى يصيبها مرة كل شهر إذا لم تكن حاملاً ولم تبلغ سنّ اليأس . أما قول المتنبى يمدح شخصًا :

خفِ الله واستر ذا الجمال ببرقع ⁂ فإن لُحْتَ حاضتْ فى الخدور العواتقُ

فليس بشىء . والمتنبى لم يكن طبيبًا حتى يؤخذ بكلامه . وأغلب الظن أنه تأثر بذلك التفسير السخيف للآية التى بين أيدينا (٧١) .

وفى قوله تعالى عن النسوة إنهن لمَّا رأين يوسف انبهرن بجماله لدرجة أنهن « قطَّعن أيديهن » (٧٢) نجد من يفسر تقطيعهن أيديهن بأنهن قد أبنَّها ، أى أزلنها من مواضعها (٧٣) . ولكن هذا فى رأيى مستبعد تمامًا ، وإلاَّ لاضطرب المجلس واستُدْعى الأطباء . وما جاء فى

القرآن لا يدل أبدا على حدوث شيء من هذا . وكذلك لو كانت الأيدى فُصلت عن أماكنها لانشغل هؤلاء النسوة بها . لكن الذى فى القرآن أنهن أخذن يراودن يوسف أيضا ، كما جاء فى الآية ٥١ . إذن فتقطيع الأيدى هنا هو تجريحها فقط .

وقد كان تعليق امرأة العزيز على الانبهار الطاغى من أولئك النسوة بيوسف أن قالت : « فذلكن الذى لمتنَّنى فيه » ، سخرية منها بهن وبما كن يقلنه فى حقها قبل أن يرينه ، إذ هاهنّ أولاء بعد أن رأينه قد شدهتهن وسامتـه حتـى إنهن قد قطّعن أيديهن بالسكاكين التى كانت معهن . والنـون فى « فذلكنّ » ليست نون التوكيد الثقيلة كما جاء عند د . باجودة (٧٤) ، بل هى جزء من « كُنّ » ، التى تلحق اسم الإشارة إذا كان الخطاب لجماعة من النساء .

وقد فسّر الطبرى ، رحمه الله ، « الآيات » فى قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين » (٧٥) (وهى الآيات الدالة على براءة يوسف ممّا اتهمته به امرأة العزيز من محاولة اعتدائه عليها) بأنها قدّ القميص من دُبُر وخمش الوجه وتقطيع النسوة أيديهن (٧٦) . فأمّا قدّ القميص فلا اعتراض عليه . ولكن كيف يمكن أن يكون تقطيع النسوة أيديهن لانبهارهن بجماله عليه السلام آية على براءته ؟ هذا ما لا أفهمه . ويبقى خمش الوجه . وسواءً أكان خمش وجهه أو

خمش وجهها هى فإنه يبدو لى مناقضا لآية قدّ القميص من دبر ، إذ خمش الوجه معناه أنه كان مواجها له لا أنه كان فاراً منها . ومن ثم يمكن أن يتخذ دليلا ضده ، إذ تستطيع أن تدعى أنه كان يهاجمها فخمش وجهها أو أنها هى التى خمشت وجهه دفاعا عن نفسها . وعلى هذا أرى أن نكتفى بالقول بأن المقصود بـ « الآيات » هو « قدّ القميص من دُبر » فحسب أو هذه وآيات أخرى من غير تحديد ما دام القرآن والتاريخ الوثيق قد سكتا عنها .

ورغم ظهور الدلائل الواضحة على براءة يوسف وطهارة ذيله ممّا اتهمته به زوجة العزيز فإنهم قد ألقوا به فى السجن حتى حين . وهناك يلقى سجينين يُعْدَم أحدهما صلبا ويُفْرَج عن الثانى ويُستدعى إلى القصر الملكى ليشتغل ساقيا هناك . وعند خروج هذا الساقى يطلب منه يوسف أن يذكر للملك إلقاءه فى السجن ظلما : « وقال (أى يوسف) للذى ظن أنه ناجٍ منهما : اذكرنى عند ربك . فأنساه الشيطانُ ذكْرَ ربّه ، فلبث فى السجن بضع سنين » (٧٧) . والسؤال هو : من الذى أنساه الشيطان ذكر ربه ؟ هل أنْسى يوسف ذكر الله فبدلا من أن يطلب منه تعالى إخراجه من السجن طلب من الساقى أن يعرض مظلمته على الملك ؟ أم هل أنْسى الساقى فلم يتذكر أن يذكر لربه الملك موضوع يوسف إلا بعد بضع سنين ؟ بعض المفسّرين يأخذون بالرأى الأول ، ويرون فى الاستعانة

بالبشر أمرا لا يليق بالأنبياء (٧٨) . ولكن هل من السهل أن نقبل أن يوسف قد نسى الاستعانة بربّه فى محنته ؟ هذا أمر لا يُتَصَوَّر ، وبخاصة أنه وهو فى السجن كان يدعو إلى الإيمان بالله وإفراده بالربوبية ويحمل على الأصنام وعبّادها ، وكان لا يفتأ يذكر لزملاء الحبس نِعَم الله عليه وينعى على الناس عدم شكرهم له سبحانه (٧٩) . أمّا الاستعانة بالبشر فأمر ليس فيه شىء يعاب على من يفعله ما دام يؤمن به سبحانه وأنه مسبّب الأسباب . ولا ننس أن يوسف قد خرج من السجن فى آخر المطاف بسبب هذه الاستعانة ، وذلك حين تذكّره الساقى . وكثيرا ما استعان الرسول فى خدمة الدين بالبشر كافرهم ومؤمنهم . وهذا من الكياسة ، فالناس يدخلون ضمن الأسباب التى ينبغى على الشخص أن يأخذ بها للوصول إلى غرضه . المهم أن يكون ذلك الغرض شريفًا . وأى غرض أشرف من أن يجتهد الشخص فى ردّ الظلم عن نفسه ؟ وقد يعضّد ما اخترناه قوله تعالى عن الساقى حين سأل الملكُ عمن يستطيع أن يُؤوِّل له رؤياه عن البقرات والسنابل : « وقال الذى نجا منهما وادَّكر بعد أُمَّة : أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسلون (أى أرسلونى إلى يوسف) » (٨٠) . وإذن فالذى نسى ذكر ربه هو الساقى ، إذ لا يتذكر إلا الناسى .

ومن عجائب التفسير أن بعضهم يقول إن رفيقى يوسف فى السجن لم يريا فى منامهما شيئًا ، ولكنها ادّعيا ذلك ليختبرا علمه (٨١) . ولا

أظن ذلك صحيحا البتة ، فليس فى كلام القرآن عن هذا الموضوع ما يشتم منه بأى حال أنهما كانا يكذبان عليه . ثم لو كان هذا التفسير صحيحا فليس له من معنى إلا أن يوسف قد سقط فى الاختبار ، إذ أوّل رؤيا لا حقيقة لها ، ثم زاد فذكر أن هذه موهبة إلهية علّمه الله إياها . كذلك هل كان السجين النّاجى ليطلب من الملك وبطانته أن يرسلوه إلى يوسف فى السجن ليعرض عليه رؤيا سيّده كى يعبّرها بعد أن عجز عن تأويلها كل من عرضت عليه ، لو كان يوسف قد وقع فى الشَرك الذى نصبه هو ورفيقه له حين ادّعيا ما ادّعيا من منام ؟ الحقيقة أن هذا التفسير لا يليق فى حق يوسف عليه السلام ، ولا يتمشى مع المنطق .

ويلفت النظر استعمال السجينين فى روايتهما ما رأياه فى المنام لصيغة المضارع : « إنى أراني أعصر خمرا » ، « إنى أراني أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه » (٨٢) . والمفروض أن يستخدما الفعل الماضى ما داما يتحدثان عن شىء وقع وانتهى . لكن قد يكون السبب فى ذلك أن الرؤيا كانت تتكرر بشكل مستمر ، فلذلك استخدما صيغة المضارعة ، التى تدل ضمن ما تدل عليه على التكرُّر والاستمرار . أو ربّما كان المنامان يبدوان من شدة إلحاحهما على خيالهما ومشاعرهما وكأنهما يقعان فى نفس الوقت الذى يقصانهما فيه على يوسف عليه السلام . ولقد حكى إبراهيم عليه السلام لابنه المنام الذى رأى نفسه فيه يذبحه بصيغة

المضارع أيضًا (٨٣) ، بينما قصّ يوسف على أبيه رؤياه للكواكب والقمرين بصيغة الماضى (٨٤) . ويبدو لى أن السّبب فى هذا الاختلاف التعبيرى هنا هو ما قلتُه قبل قليل .

ويخرج الساقى من السّجن إلى القصر ، وينسى يوسف وطلبه منه أن يذكره عند الملك. ثم تدور الأيام ويحلم الملك حلما يعجز كل من استشارهم عن تأويله ، وعندئذ يتذكر الساقى رفيقه يوسف (٨٥) فيقول : « أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » (٨٦) . وقد وقف د. محمد حسن باجودة عند استعمال الساقى لضمير الجمع هنا ، ووجَّه ذلك بأنه يخاطب كبار رجال الدولة ، إذ لم يكن له كلام مباشر مع سيّده (٨٧) . ويظهر لى أن من الأوفق القول بأن الساقى يخاطب سيّده بضمير الجمع تعظيما له كما هو المتَّبع فى مخاطبة الملوك . وليس من المعقول أن ينعدم الكلام المباشر بين الملك وساقيه الذى يقدم له الخمر فى مجالس أنسه وطيب نفسه . وقد قال يوسف لهذا الساقى من قبل : « اذكرنى عند ربك » ، ولم يقل له مثلا : « اذكرنى عند من يستطيع أن يخاطب ربك فى أمرى » . وقد ذكر ذلك د. باجودة نفسه (٨٨) . كما قال الأستاذ الدكتور بعد ذلك أيضًا إن « الساقى كان يجيب عن بعض أسئلة الملك » (٨٩) ، وهو ما يفيد أنه كان بينهما كلام مباشر .

وعندما يحمل الساقى إلى الملك تعبير يوسف لرؤياه يرسل فى

إحضاره . لكن يوسف عليه السلام يلتمس من الملك أن يفحص التهمة الموجهة إليه أولاً . فيحضر الملك امرأة العزيز وصاحباتها ويحقق معهن فيعترفن بأنهن لم يجرّبن على يوسف سوءاً ، وتقرّ امرأة العزيز بأنها هي التي راودته وأنه بريء ومن الصادقين . ونقرأ عقيب ذلك قوله عزّ شأنه : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين * وما أبرّيء نفسي . إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي . إن ربي غفور رحيم » (٩٠) . فمن قائل هذا الكلام ؟ أهو يوسف أم امرأة العزيز ؟ بعض المفسرين على هذا ، وبعضهم على ذاك . ويبدو لي أن القائل هو يوسف (٩١) ، وقد قاله تسويغًا لطلبه فتح التحقيق من جديد في القضية التي سُجِن فيها ظلما . أما امرأة العزيز فلا يُعْقَل أن تدّعي بعد أن اعترفت بذنبها وظلمها أنها لم تخنه بالغيب ، سواء أقلنا إن « الهاء » في « لم تخنه » عائدة على زوجها أم على يوسف . ذلك أنها قد خانت زوجها حينما لم تحترم رابطة الزوجية وتهالكت على يوسف ودعته إلى الفاحشة ، وإن لم تنجح في سعيها معه . كما خانت يوسف أيضا حينما اتهمته ظلما بأنه قد أراد بها السُّوء وأدى ذلك به إلى السجن . لكن عبد الله يوسف علي يقول إنها تريد أن تؤكد ليوسف أنها لم تخنه بالغيب ، بل اتهمته في وجهه وليس خلف ظهره (٩٢) . لكن هل يُعْقَل أنها لم تسع من خلف ظهره في رميه في السجن ؟ وحتى لو لم تفعل ، وذلك بعيد ، فهل يقدّم أو

يؤخر ، مـا دامـت قد اعترفت بأنها خانته فاتهمته وتسببت فى سجنه ظلما ، أن تكون هذه الخيانة فى وجهه أو فى غيابه حتى لتعمل على إعلامه بذاك ؟

وبعد أن تنجلى الحقيقة تمامًا يُعْجَب الملك غاية الإعجاب بهذا الرجل الوفى النبيل ، الطاهر الثوب ، المعتز بنفسه ، الذى آتاه الله موهبة تأويل الأحاديث وتدبير الخطط المحكمة للخروج من الأزمات المؤنسة ، ويطلب إحضاره كى يستخلصه لنفسه (٩٣) . وعندما يحضر يخبره أنه اليوم لديه « مكين أمين » ، فيعرض عليه يوسف أن يوليه خزائن الأرض مبررًا ذلـك بأنه « حفيظ عليم » (٩٤) . وهنا يتساءل بعض المفسرين : هل يصحّ أن يزكّى الإنسان نفسه ويطلب توليته منصبًا من المناصب ؟ ويقول الزمخشرى إنه إنما فعل ذلك « ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل والتمكّن مما لأجله تُبْعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحبّ الملك والدنيا » (٩٥) . وجاء فى « مجمع البيان » للطبرسى أن فيما قاله يوسف للملك « دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه ، فإنه عرَّف الملك حاله ليقيمه فى الأمور التى فى إيالتها صلاح العباد والبلاد ، ولم يدخل بذلك تحت قوله سبحانه : فلا تزكُّوا أنفسكم » (٩٦) . وبمثل ذلك قال غيرهما من المفسرين ممّن

تعرضوا لهذه النقطة . والحقُّ أن يوسف لم يطلب توليته خزائن الأرض
ابتداءً ، بل كان ذلك بعد أن قربه إليه الملك وأعلن ثقته به وأعلن أنه عنده
منذ الآن فصاعدا مكين أمين . فكل ما فعله يوسف هو أنه اختار ما يعرف
أنه يستطيع النهوض بأعبائه ، وهو تدبير خزائن الأرض . إن الملك هو الذى
عرض عليه أن يتولى ما يشاء من مناصب ، فاختار يوسف الإشراف على
الأمور المالية للدولة . وعلى أية حال ، فليس فى
طلب الشخص منصبًا من المناصب من سوء ، وعلى المسؤولين اختبار
قدراته والتثبت مما يقوله عن نفسه ، فإن وجدوا أنه يستطيع القيام
بالمنصب علمًا وخلقا وإدارة أسندوه إليه ، وإلا صرفوه إلى غيره ممن يقدر
على شَغْله بما يُرْضى الله ويحقق مصالح العباد .

ثم تولى يوسف خزائن الأرض ، وجاء إخوته ليشتروا منه قمحًا فى
إحدى سِنِى القحط فعرفهم ولكنهم لم يعرفوه ، فباعهم ما يريدون (٩٧)
وطلب منهم أن يأتوه فى المرة القادمة بأخيهم من أبيهم وإلاَّ فلا يعودوا .
وعندما همّوا بالعودة إليه ومعهم أخوهم نصحهم يعقوب عليه السلام ألا
يدخلوا من باب واحد بل من أبواب متفرقة ، وأردف قائلاً إنه بهذا النُّصح
لا يغنى عنهم من الله من شىء ، فالحكم له وحده تعالى . وقد صدق
احتراز يعقوب ، فإن ابنه لم يعد إليه . إذ احتجزه يوسف بعد أن وضع
صُوَاع الملك فى رحله وبدا أمام العيون أنه قد سرقه (٩٨) . والمفسرون فى

تأويل هذه النصيحة فريقان : منهم من يقول إنه خشى عليهم العين ، وآخرين يرون أنه خاف أن يثيروا الشبهات ضدهم إذا دخلوا كلهم معًا من باب واحد فيتعرضوا للمشاغبات والمضايقات (٩٩) . وكأن هؤلاء الأخيرين لا يرون للعين هذا التأثير الذى يُستند إليها .

والصُّواع هو السقاية التى كان يشرب فيها الملك كما ذكرت الآية ٧٠ . ولكن فريقًا من المفسرين قالوا إن ذلك الصُّواع كان يستعمل مكيالاً للقمح . ولعلهم قالوا هذا ليسوّغوا وجوده هناك . ولكن من قال إن الصُّواع لا يكون فى موضع الامتيار إلا للكيل ؟ أليس من الممكن أن الملك كان حاضرًا عملية الامتيار وكان معه ساقيه وشرابه وكأسه ؟ أليس هذا أقرب إلى العقل من القول بأنهم كانوا يستخدمون صُواع الملك فى كيل القمح وكأن الدنيا قد خلت من المكاييل والآنية فلم يجدوا إلا كأس الملك النفيسة ؟ (١٠٠) أليس فى هذا إساءة إلى الملك بكل جلاله وهيلمانه ؟

كذلك ففى الوقت الذى يصف القرآن فيه الصواع بأنه « صواع الملك » نجد من يقول إن يوسف كان يشرب فيه (١٠١) . ولعلّ ذلك راجع إلى ما جاء فى سفر « التكوين » من أنه طاس يوسف ، وأنه كان يشرب فيه (١٠٢). والأفضل ألاّ نعير ما جاء فى رواية الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى اهتمامًا .

وبهذه الحيلة استبقى يوسف عليه السلام أخاه شقيقه معه . ذلك أن

الإخوة لما اتهموا بسرقة الصواع الملكى نفوا ذلك بشدة وقالوا : إنكم لو وجدتموه فى رحل أحدنا فخذوه عبدا رقيقا عقوبة له على ذلك . وعندئذ بدأ التفتيش فوجدوه فى نهاية الأمر فى رحل شقيقه . ويقول المولى عز ذكره فى ذلك : « كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله » (١٠٣) . ويفسّر المودودى هذه الآية بأنه لم يكن يصح ليوسف أن يحكم على أخيه بشريعة الملك فى قضيته الشخصية لأنها شريعة غير سماوية . وهو يعتمد فى هذا التفسير ، ضمن ما يعتمد عليه ، على أن هذا التركيب : « ما كان لفلان أن ... » إذا ورد فى القرآن فلا يعنى إلا أنه « لايصح منه أن يفعل كذا » (١٠٤) .

ولكن يبدو أنه ، رحمه الله ، لم يستقص آيات القرآن التى ورد فيها ذلك التركيب ، وإلاّ لتنبه إلى هذه النصوص مثلا ، وقد جاء فيها هذا التركيب للدلالة على القطع بعدم إمكان حدوث الشىء وليس للدلالة على أنه لا يليق أو أنه غير جائز شرعا : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » (١٠٥) ، « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » (١٠٦) ، « ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » (١٠٧) ، « وما كان الله ليظلمهم » (١٠٨) ، « وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض » (١٠٩) ، « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » (١١٠) .

كذلك فإن القضية كلها ليست إلا حيلة لا أصل لها ، فليست هناك سرقة ولايحزنون . وهى على أية حال ليست قضية شخصية ليوسف ، إنما هى (إن صحَّ أنها قضية أصلاً) قضية إخوته . ثم هل يظن الأستاذ المودودى ، رحمة الله عليه ، أن يوسف قد استرقَّ أخاه فعلاً بمقتضى الحكم الذى حكمه إخوته ؟ لا أعتقد هذا أبدًا . وكيف يمكن أن يسترقّه وهو أخوه الذى كان يحبه أشد الحب والذى احتال من قبل حتى جعل إخوته يحضرونه معهم كى يراه ، ثم لما رآه آواه إليه دون سائر إخوته وصارحه بحقيقة شخصيته وأنه شقيقه يوسف المفقود وقال له : « إنى أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون » ؟ (١١١) إنما هى ، كما نعرف ، حيلة احتالها (وقد سماها القرآن الكريم كيدًا من الله) ليحتفظ بأخيه عنده . وحتى لو كانت قضيةً حقيقية أفيجب أن نعتقد أنه ما كان يجوز له أن يحكم فيها بشريعة البلد الذى كان يتبوأ فيه أحد المناصب الكبيرة ؟ إنه لم يكن فى مصر آنذاك قانون سماوى حتى يعاب عليه تركه والحكم بغيره . وقد تبنَّى رسولنا الكريم زيد بن حارثة ، ولم ينكر عليه القرآن ذلك رغم نزوله بعد هذا بتشريع يبطل به هذا التبنى .

تفسير الآية إذن ليس هو ما قاله الأستاذ المودودى ، بل المقصود أنه ما كان يستطيع أن يستبقى أخاه عنده بمقتضى شريعة الملك ، لأن عقوبة السارق فيها شىء آخر . ومع ذلك فإن د . محمد البهى يعكس المسألة ، إذ

يقول إن « يوسف كان لايستطيع أن يحتجز أجنبيا وافدا إلى مصر بمصر نفسها إلا إذا ثبتت عليه السرقة . وعندئذ توقع عليه عقوبتها ، وهي الاسترقاق لمدة عام . وتلك شريعة مصر في ذلك الوقت » (١١٢) ، مع أن الآيات واضحة في أن الذين حكموا بهذا الحكم هم إخوة يوسف وأنهم قالوا إنهم هكذا يجزون الظالمين (١١٣) . وقد فسر قوله تعالى : « قالوا (أي المصريون) : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا (أي إخوة يوسف) : جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه » على أنه يعني : هل تعرفون جزاء السارق عندنا ؟ فأجابوا : نعم ، نعرف أنه الاسترقاق لمدة عام (١١٤) . وهذا تفسير خاطىء للآية يقوم على الاعتساف ، وبخاصة أن إخوة يوسف (كما أشرنا) قد قالوا بصريح العبارة : « كذلك نجزي الظالمين » ، أي أن هذا هو عقوبة السارق عندهم .

وعند العثور على صواع الملك في رحل أخيهم نسمعهم يقولون : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » (١١٥) . والمقصود بذلك يوسف . وقد ذكر المفسرون أنه عليه السلام قد سرق وهو طفل صنما لجده لأمه وحطمه ، أو أنه كان يسرق الطعام ويعطيه للفقراء ، وغير ذلك (١١٦) . وهم حينما قالوا هذا لم يعتمدوا على قرآن أو خبر صحيح ، وإنما يبدو أنهم أخذوا ذلك عن أهل الكتاب .

وإن نفسي غير مستريحة أبدا إلى ما قالوه عن سرقته الطعام من

بيتهم للفقراء ، فإن هذا يوحى بأنه لم يكن بيت كرم ، وإلاَّ فلماذا يسرق الطعام لهم من وراء أهله ؟ إن الطفل الذى يشبّ على رؤية أبويه يطعمان الضيفان ويكرمان الفقراء لا يفعل هذا ، بل يخبرهما وهو مطمئن إلى أنهما سيهبّان لإعطاء المسكين وجبر حاجة المحتاج . وبالنسبة للإشارة إلى أصنام جده لأمّه فقد جاء فى العهد القديم أن ذلك الجد كان وثنيًا وكانت له أصنام سرقتها أم يوسف وأخفتها تحت فخذها وأنكرت أنها معها مدّعية أنها حائض لا تستطيع أن تنهض من مكانها ، ففتّش أبوها المكان فلم يجد شيئًا (١١٧) .

وقد أتى الأستاذ عبد الكريم الخطيب بتفسير لا أذكر أنى وجدته عند غيره ممن رجعت إليهم وأنا أُعدّ هذه الدراسة ، وهو أنهم « يعنون بما سرقه ما كان من استيلائه على قلب أبيه . وهذا فى تقديرهم سرقة من يوسف لأبيهم واستئثاره بحبه دونهم » (١١٨) . وهو تفسير طريف لاشك . وليس عندى ما أقوله أكثر من هذا .

وقد حاول الإخوة أن يَثْنوا يوسف عن أخذ أخيهم الصغير وعرضوا عليه أن يأخذ واحدا منهم مكانه ، ولكنه رفض . وعندئذ قال لهم كبيرهم : « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ، ومن قَبْلُ ما فرَّطتُم فى يوسف . فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى . وهو خير الحاكمين » (١١٩) . وقد أعرب الطبرى « ما » فى

« ما فرطتم » على أنها مصدرية (١٢٠) . ويفهم مما كتبه الأستاذ أحمد مصطفى المراغى أنه يعدها زائدة (١٢١) . وأحسب أنها تقبل توجيها إعرابيا آخر تقرأ الآية معه على النحو التالى : « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ؟ ومن قبل (أ) ما فرطتم فى يوسف ؟ » .

وعجيب ألا يخبو فى قلب يعقوب عليه السلام الأمل فى أن يوسف رغم كل هذا العمر الطويل سوف يعود إليه يوما (١٢٢) . ولكنه الإيمان بالله ، الذى قال يعقوب ليوسف حينما قصّ عليه رؤياه إنه سوف يجتبيه ويعلّمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على جديه إسحاق وابراهيم (١٢٣) . وهذا يعنى ، ضمن ما يعنى ، أن رؤيا سوف تتحقق فيخضع له إخوته ويسجدون . ولمّا كان إخوته لم يخضعوا له بعدُ أو يسجدوا فهو إذن لا يزال حيّا ، وإلا كانت الرؤيا كاذبة . حاش لله ! ولقد قال عليه السلام لأولاده حين أمرهم أن يذهبوا فيتحسسوا أخبار يوسف وأخيه : « لا تيأسوا من روح الله (أى من رحمته) . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (١٢٤) ، فحذّرهم اليأس قائلا إنه من الكفر ، أى الكفر بأن الله رحيم وأنه يجعل بعد العسر يسرا ، والشلل من ثم أمام مصائب الحياة وبلاياها ، مما يجعلها عذابا قاتما متصلا وبيداء مجدبة مهلكة .

ويعود إخوة يوسف إلى مصر كرّة ثالثة للميرة . وفى هذه الزورة

يعرّفهم يوسف بنفسه ، ويرسل معهم قميصه ليضعوه على وجه أبيه ، الذى كانت عيناه قد ابيضّتا من شدة الحزن وكثرة البكاء عليه ، ليرتد إليه بصره . وما إن تبدأ القافلة فى الرجوع حتى يعلن يعقوب ، وهو فى أرض كنعان ، أنه يشم رائحة يوسف فى الجوّ فيسخر منه من حوله . ثم يصل البشير ومعه القيمص فيضعه على وجهه فيعود بصيرا كما كان من قبل . وينتقل أبوا يوسف وإخوته إلى مصر ويدخلون عليه فيرفع أبويه على العرش ويسجد له الجميع : « ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سُجّدًا . وقال : يا أبت ، هذا تأويل رؤياى من قَبْلُ . قد جعلها ربى حقّا » (١٢٥) .

ويعلّق المفسرون على خرورهم سجّدًا بأن تلك كانت تحية الملوك فى ذلك الزمان . يعنى أن المفسرين لم يجدوا فى ذلك حرجًا . لكن المودودى يرفض أن يكونوا قد سجدوا فعلاً له ، مؤكدا أن السجود بالمعنى الإسلامى ، أى بوضع الركبتين واليدين والجبهة والأنف على الأرض ، لم يكُ فى يوم من الأيام جائزا لغير الله عز وجل . وهو لهذا يشرح خرورهم له سجّدا بالركوع (١٢٦) . لكن هل الركوع هو أيضا يخلو من شبهة الخضوع لغير الله ؟ ثم إنه ، رحمه الله ، يستشهد كذلك من العهد القديم على أن السجود للبشر لا يجوز (١٢٧) ، مع أن العهد القديم يذكر مثلا انحناء يعقوب ونسائه وأولاده لبشر ، وبشر عاديين (١٢٨) . وإن عبارة القرآن هى : « خرّوا له سجّدًا » . ولو كان يقصد الركوع

لقال : « وخرّوا له رُكّعا » ، كما قال عن داود عليه السلام حينما ظن أن الله قد فتنه إنه « خرّ راكعا وأناب » (١٢٩) . وقد ورد تعبير « خرّوا سجّدا » بضع مرات فى القرآن عند الحديث عن خشوع المؤمنين وإخباتهم لربهم إذا سمعوا آياته (١٣٠) . ولا يُتصوّر أن يكون المراد أنهم يركعون ، فالمسلم لا يركع عند سماع القرآن بل يسجد .

وقد علّق يوسف عليه السلام على خرورهم له سجّدا بقوله : « يا أبت ، هذا تأويل رؤياى من قبل . قد جعلها ربى حقًّا . وقد أحْسَن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى » (١٣١) . ويستلفت الانتباه استخدامُ « الباء » هنا مع الفعل « أحْسَن » . والشائع اقترانه بـ « إلى » . وفى « الكشاف » للزمخشرى : « يقال : أحسن إليه وبه ، وكذلك أساء إليه وبه » (١٣٢) . وبعضهم قال إنه عندما يقترن بالباء يكون معناه « لطُف » ، أى أنّه تضمين (١٣٣) . وعلى أية حال ، يظهر لى من ناحية الذوق اللغوى أن هناك فرقا بين « أحسنتُ إلى فلان » و « أحسنتُ به » ، فالأولى عندما أعطيه مالا مثلا ، والثانية عندما أعامله بلطف أو أخْرجه من ورطة . الإحسان إلى الشخص إذن يكون بتوصيله إليه ، أما الإحسان به فبإيقاعه عليه هو نفسه .

وفى الابتهال الذى اتجه به يوسف إلى ربه تعالى عندئذ نسمعه

يقـول : « توفّنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين » (١٣٤) . وقد فهمت طائفة من المفسرين أن يوسف عليه السلام يتمنى بهذا الموت ، وقالوا : « ما تمنى نبىٌّ قط الموت قبل يوسف » (١٣٥) . واستنبط بعضهم من هذا أن تمنى الموت حبا للقاء الله تعالى مما لا بأس به (١٣٦) . والحقُّ أن الرأى الآخر الذى يقول إنه لم يتمن الموت وإنما تمنى إذا جاءه الموت أن يموت على الإسلام هو الرأى الصحيح ، وإلا لجاء فى الدعاء ما يدل على أنه تمنى الموت ساعتذاك ، وهو ما لا وجود له فى الآية . ثم لماذا يتمنى الموت وقد أسعده الله حينها بجمع شمله مع أبويه وإخوته ، وكان معززا مكرّما فى مصر ، كلمته ماضية بالحقّ ، ومليكُها يحبّه ويقرّبه إليه ؟

وبذلك تنتهى قصة يوسف وأهله ، وتلتفت الآيات عندئذ إلى النبى محمد صلى الله عليه قائلة إن هذه القصة من أنباء الغيب التى لم يكن يعرفها قبل ذاك (١٣٧) . وهذا معناه أنها وحى إلهىّ . وهو أبلغ رد على من يقولون إن القرآن من عنده عليه الصلاة والسلام ، إذ لم نسمع أحدا من المشركين يشغب عليه بأنه كان يعرفها ، فقد سبق القول بأن اليهود هم الذين سألوه عنها امتحانا له ورغبة فى تعجيزه والتشنيع عليه ، لكن الوحى نزل بها على الفور فألقمهم فى أفواههم حجرا .

وتتحدث الآيات التالية عن عناد قومه عليه السلام وعمى قلوبهم عن تملّى الآيات الكونية التى من شأنها أن تنبه العقول وتوقظ القلوب .

وتحذرهم أن ينزل الله بهم عذابًا كالذى أنزله على المكذّبين السابقين ، وتدعوه إلى المضى فى طريقه قُدُمًا هو ومن اتبعه ، وتبث فى قلبه روح الأمل مهما ادلهم الظلام وبدت الطرق مسدودة والكفر منتفشًا لا يرعوى ولا يستجيب : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنُجِّى من نشاء . ولا يُرَدُّ بأسنا عن القوم المجرمين » (١٣٨) . وهنا نتذكر قول يعقوب لأبنائه : « اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من رَوْح الله . إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » .

وفى الختام نقرأ قوله تعالى : « لقد كان فى قصَصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يُفْتَرَى ، ولكن تصديقَ الذى بين يديه وهدًى ورحمةً لقوم يؤمنون » (١٣٩) . وهذه الآية وأمثالها (١٤٠) أبلغ ردّ على من يقولون إنهم مسلمون وفى ذات الوقت يدَّعون أن القرآن لا يعنيه من عناصر القصة أن تكون قائمة على أساس الحق والواقع بقدر ما يعنيه أن تكون هذه العناصر ممّا يملك القلوب ويسيطر عليها (١٤١) .

الهوامش

١- يوسف / ٢ .

٢- إبراهيم / ٤ .

٣- فُصِّلت / ٤٤ .

٤- الشعراء / ١٩٨ - ١٩٩ .

٥- انظر مثلا السيوطى / الإتقان / ١ / ١٣٦ وما بعدها ، وتفسير الألوسى / ١٢ / ١٧٤ .

٦- انظر تفسير الطبرى / ١٢ / ٥١ . وانظر كذلك تفسير الزمخشرى / دار الفكر / بيروت / ط ١ / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / ٢ / ٣٠٢ - ٣٠٣ ، وتفسير الألوسى / ١٢ / ١٨٠ .

٧- النحل / ٤٨ .

٨- فُصِّلت / ١١ .

٩- انظر تفسير الألوسى / ١٢ / ١٨٠ .

١٠- انظر تفسيره لسورة يوسف / ١١١ .

11- Maududi , The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 123.

١٢- انظر تفسير الألوسى / ١٢ / ١٨٠ - ١٨١ .

١٣- هود / ٤٢ .

١٤- الصافات / ١٠٢ .

١٥- لقمان / ١٣ ، ١٦ - ١٧ .

١٦- يوسف / ٩ .

١٧- ذكر ذلك الطبرى (١٢ / ١٥٥) والمودودى (٥ / ١٣١) وسيد قطب (٤ / ١٩٧٣) والمراغى (١٢ / ١١٨) وحجازى (١٢ / ٦٧) واقتصروا عليه ، على حين ذكر الزمخشرى (٢ / ٣٠٥) والألوسى (١٢ / ١٩١) معه الرأى الآخر الذى أخذتُ به ، وإن قدّماه عليه

وكان ميلهم إليه . أما الشيخ الطاهر بن عاشور فقد رفض هذا التفسير ، ورأى أن الصلاح في الآية هو صلاح أحوالهم في عيشهم مع أبيهم لا الصلاح الديني (تفسير التحرير والتنوير / ١٢ / ٢٢٤) .

١٨- انظر تفسير الطبرى / ١٢ / ١٥٨ .

١٩- انظر تفسير الزمخشرى/ ٢ / ٣٠٦ .

٢٠- المائدة / ٥٨ .

٢١- الأنعام /٧٠ .

٢٢- انظر في ذلك مثلاً الطبرسي / م ٤ / ج ١٣ / ١٧ .

٢٣- نفس المرجع والصفحة .

٢٤- يوسف / ١٣ .

٢٥- يوسف / ١٤ .

٢٦- يوسف / ١٥ .

٢٧- انظر كتابي « عشر لآلىء من جواهر السنة النبوية » / مركز الشرق العربي / الطائف / ٤٨ .

٢٨- انظر تفسير التحرير والتنوير / ١٢ / ٢٣١ .

٢٩- يوسف / ٢٣ .

30- Maududi , The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 137 .

٣١- يوسف / ٤١ .

٣٢- يوسف / ٤٢ .

٣٣- يوسف / ٥٠ .

٣٤- يوسف / ٢٤ .

٣٥- انظر في ذلك كتب التفسير وترجمات القرآن المختلفة عند تناولها لهذه الآية .

٣٦- عبدالكريم الخطيب / قصتا آدم ويوسف عليهما السلام / دار الفكر العربي / ٧٧-٨٨ .

٣٧- السابق / ٧٨ .

٣٨- يوسف / ٣٢ .

٣٩- يوسف / ٣٣ .

٤٠- يوسف / ٥٠ .

٤١- يوسف / ٥١ .

٤٢- يوسف / ٢٥ .

٤٣- انظر مثلا « الكشاف » للزمخشرى / ٢ / ٣١٣ ، و « مجمع البيان » للطبرسى / م ٤ / ح ١٢ ، ٤٦ ، و « روح المعانى » للألوسى / ١٢ / ٢١٨ .

٤٤- يوسف / ٢٦ - ٢٩ .

٤٥- انظر فى ذلك التفاسير المختلفة .

٤٦- قد يقال إن الكلام هنا للعزيز نفسه . ولكنْ أيضا بعيدٌ أن يعود الضمير فى « فلما رأى قميصه قُدَّ من دبر ... » عليه رغم ذلك الفاصل الطويل من الكلام عن الشاهد من أهل الزوجة . ومع ذلك يقول الشيخ الطاهر بن عاشور إن الذى رأى أن القميص قَدّ قُدَّ من دُبُر ... إلخ « هو العزيز لا محالة » (تفسير التحرير والتنوير / ١٢ / ٢٥٨) . ولا أدرى من أين له بهذا اليقين القاطع .

٤٧- قصتا آدم ويوسف عليهما السلام / ٨٢ - ٨٥ .

٤٨- يوسف / ٢٨ .

٤٩- النساء / ٧٦ .

٥٠- انظر فى ذلك الزمخشرى / ٢٠ / ٣١٥ . وانظر ردّ ابن المنيّر فى الهامش على هذا بما لا يختلف عما قلناه .

٥١- الكشاف / ٢ / ٣١٦ ، وروح المعانى / ١٢ / ٢٢٥ .

٥٢- ممَّن قال بذلك أيضًا الأستاذ أحمد مصطفى المراغى (تفسير المراغى / ١٢ / ١٣٧ - ١٣٨) ، والأستاذ سيد قطب (فى ظلال القرآن / ٤ / ١٩٨٤) ، ود . حسن محمد باجودة

١٢٨) ، والأستاذ سيد قطب (فى ظلال القرآن / ٤ / ١٩٨٤) ، ود . حسن محمد باجودة (الوحدة الموضوعية فى سورة يوسف عليه السلام / مطبوعات تهامة / جدة / ط ٢ / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / ٩٢ - ٩٣)

٥٣- انظر « جامع البيان عن تأويل آى القرآن » / ١٢ / ١٩٨ .

٥٤- يوسف / ٢١ .

٥٥- يوسف / ٥٤ .

56- The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 166 .

٥٧- فى ظلال القرآن / ١٩٧٨ ، ١٩٨٣ .

58- The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 154.

وقد وُصف الصواع فى « دائرة المعارف الإسلامية » بأنه « Yusuf's cup : كأس يوسف » ، بما قد يُفهم منه أن المستشرق الذى كتب هذا كان يعتقد أن يوسف هو الملك . انظر : Shorter Encyclopaedia of Islam , Brill & Luzac , 1961 , p. 647

٥٩- يوسف / ٧٦ .

٦٠- يوسف / ٧٨ ، ٨٨ .

61- The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 166 .

٦٢- انظر مثلا تفسير الطبرى / ١٣ / ٦٦ ، وتفسير الزمخشرى / ٢ / ٣٤٤ .

٦٣- تفسير الزمخشرى / ٢ / ٣٤٤ .

٦٤- انظر تعليقه فى الهامش على هذه الكلمة فى ترجمته للقرآن المسماة « The Holy Quran » .

65- The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 154 .

٦٦- البقرة / ٢٥١ .

٦٧- البقرة / ٢٥٨ .

٦٨- يوسف / ٣١ .

٦٩- انظر تفسير الطبرى / ١٢ / ٢٠٥ .

٧١- انظر فى هذا التفسير المتهافت الطبرى / ١٢ / ٢٠٥ ، والزمخشرى /٢ / ٣١٧ ، والطبرسى / م ٤ / ج / ١٢ / ٥١.

٧٢- يوسف / ٣١ .

٧٣- انظر هـذا الرأى مثلا فى تفسير الطبرى / ١٢ / ٢٠٦ - ٢٠٧ ، وتفسير الطبرسى / م ٤ / ج ١٢ / ٥٤ .

٧٤- انظر كتابه « الوحدة الموضوعية فى سورة يوسف عليه السلام » / ٩٧ . وقد لاحظت أن بعض الكتاب يرتبكون مع حروف الخطاب التى تلحق أسماء الإشارة للبعيد . بل إن د. جمال مخيمر ، وهو المتخصص فى اللُّغة والنحو ، قد غيَّر العبارتين التاليتين لابن قتيبة : « كيف أولئكن الرجال يا نسوة ؟ » و « كيف أولئكم النساء يا رجال ؟ » ، وجعلهما : « كيف أولئكم الرجال يا نسوة ؟ » و « كيف أولئكن النسوة يا رجال ؟ » (د. جمال عبدالعاطى مخيمر / تحقيق « كتاب تلقين المتعلم من النحو » لابن قتيبة الدينورى / ط ١ / ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م / ٣٢٠) . وقول ابن قتيبة هو الصواب ، لأن حرف الخطاب فى آخر اسم الإشارة إنما يتبع المخاطب لا المشار إليه .

٧٥- يوسف / ٣٥ .

٧٦- تفسير الطبرى / ١٢ / ٢١٢ .

٧٧- يوسف / ٤٢ .

٧٨- انظر ذلك مثلا عند الطبرى / ١١٢ / ٢٢٣ - ٢٢٤ ، والزمخشرى / ٢ / ٣٢٢ ، والطبرسى / م ٤ / ج ١٢ / ٦٢ - ٦٣ ، والألوسى / ١٢ / ٢٤٧ - ٢٤٩ .

٧٩- يوسف / ٣٦ - ٤٠ .

٨٠- يوسف / ٤٥ .

٨١- انظر ذلك فى الطبرى / ١٢ / ٢١٤ ، والطبرسى / م ٤ / ج ١٢ / ٥٨ .

٨٢- يوسف / ٣٦ .

٨٣- الصافات / ١٠٢ .

٨٣- الصافات / ١٠٢ .

٨٤- يوسف / ٤ .

٨٥- يقول القرآن إن الساقى قد تذكر موضوع يوسف « بعد أُمَّة » . ويشرح المفسرون كلمة « أُمَّة » بأنها فترة طويلة من الزمن ، ولكن الأستاذ محمد حميد الله يترجمها إلى الفرنسية هكذا : « au bout d'une generation : بعد مرور جيل ».(Le Saint Coran , p. 310) ، وكأنه قد أخذ الكلمة على حرفيتها .

٨٦- يوسف / ٤٥ .

٨٧- انظر « الوحدة الموضوعية فى سورة يوسف عليه السلام » / ١١٧ .

٨٨- السابق / ٣٩٤ .

٨٩- السابق / ١٢٢ .

٩٠- يوسف / ٥٢ - ٥٣ .

٩١- وكذلك ترجمها محمد مارمادوك بكثل (The Meaning of the Glorious Koran , p. 52) . ومثله فعل أبو الأعلى المودودى (The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 147) ، الذى شرح ذلك فى الهامش بأن هذا الكلام النبيل لا يمكن أن يصدر عن نفس منحطة كامرأة العزيز (ص / ١٥٢ - ١٥٣) . أما الأستاذ سيد قطب فيرى أنها آمنت بالله وأصبحت تتحرج من الإثم (فى ظلال القرآن / ٤ / ٢٠٠٤) .

٩٢- انظر ترجمته للقرآن الكريم بعنوان « The Holy Quran » ، وذلك فى تعليقه فى الهامش على هذه الآية . وبمثل هذا التفسير قال د. محمد محمود حجازى (التفسير الواضح / ١٢ / ٨٥) .

٩٣- يلاحظ أن الملك عندما أرسل إليه أولاً بعد تعبيره رؤياه اكتفى بأن قال : « ائتونى به » . لكنه فى هذه المرة بعد أن رأى من عزة نفسه وحرصه على فتح باب التحقيق فى تهمته مرة أخرى ما رأى ازداد به إعجابا وله تقديرا فقال : « ائتونى به أستخلصه لنفسى » .

٩٤- يوسف / ٥٤ - ٥٥ .

٩٦- م ٤ / ح ١٣ / ٧٧ .

٩٧- يقول الأستاذ سيد قطب ما مفاده أن يوسف لم يعطهم الغلال ، بل أعاد إلى رحالهم ، دون أن يعرفوا ، البضاعة التى كانوا قد أتوا بها ليبادلوا بها غلالاً (فى ظلال القرآن / ٤ / ٢٠١٦) . ولكن هذا التفسير يتعارض مع قوله تعالى عنه عليه السلام إنه « جهَّزهم بجهازهم » وكال لهم فأوفى الكيل (الآية / ٥٩) . ويبدو أنه ، رحمه الله ، قد سها ففهم من قولهم لأبيهم بعد عودتهم : « مُنع منا الكيل » أن المنع قد حدث ، بينما المقصود أنه قد تقرَّر منع البيع لهم فى المرة القادمة إذا لم يحضروا معهم أخاهم .

٩٨- يوسف / ٥٨ - ٧٦ .

٩٩- وإن الإنسان ليتساءل : لماذا نصحهم بذلك هذه المرة ولم ينصحهم بها من قبل ؟ ويبدو أنه رأى أن عودتهم مرة ثانية إلى مصر ليمتاروا من شأنها أن تثير النفوس عليهم فى ذلك الوقت العصيب المجدب . وربما كان لوجود صغيره معهم فى تلك الرحلة دخل فى هذا الخوف ، كما ألمح الأستاذ المودودى (The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 159) .

١٠٠- جاء فى « الكشّاف » (٢ / ٣٣٤) أنه قيل إن الملك كان يُسْقَى بها ثم جُعِلت صاعا يكال به ، وقيل : كانت الدوابّ تُسْقَى بها ويكال بها . ولا ندرى علام كل هذا التكلُّف . وذكر صاحب « فى ظلال القرآن » (٤ / ٢٠١٩) أنها « كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى فى كيل القمح لندرته وعزّته فى تلك المجاعة » ، وكأن نصيب كل فرد كان بضعة جرامات من القمح وليس حمل بعير .

١٠١- انظر الطبرى / ١٣ / ١٦ - ١٩ .

١٠٢- تكوين / ٤٤ ، ٢ ، ٥ .

١٠٣- يوسف / ٧٦ .

104- The Meaning of the Quran , Vol. V, p. 164 - 165 .

١٠٥- آل عمران / ١٧٩ .

١٠٦- آل عمران / ١٧٩ .

١٠٦- آل عمران / ١٧٩ .

١٠٧- الأنعام / ١١١ .

١٠٨- العنكبوت / ٤٠ .

١٠٩- فاطر / ٤٤ .

١١٠- الشورى / ٥١ .

١١١- يوسف / ٦٩ .

١١٢- انظر تفسيره لسورة يوسف / ٤٢ .

١١٣- يوسف / ٧٥ .

١١٤- انظر تفسيره لسورة يوسف / ٤٣ .

١١٥- يوسف / ٧٧ .

١١٦- انظر كتب التفسير المختلفة فى تفسير هذه الآية .

١١٧- تكوين / ٣١ / ١٩ ، ٣٤ - ٣٥ .

١١٨- عبدالكريم الخطيب / قصتا آدم ويوسف عليهما السلام / ١٢١ - ١٢٢ .

١١٩- يوسف / ٨٠ .

١٢٠- انظر تفسير الطبرى / ١٣ / ٣٥ .

١٢١- انظر تفسير المراغى / ١٣ / ٢٦ .

١٢٢- يوسف / ٨٤ - ٨٧ .

١٢٣- يوسف / ٦ .

١٢٤- يوسف / ٨٧ .

١٢٥- يوسف / ١٠٠ .

126- The Meaning of the Quran , Vol. V , p. 174 - 175 .

١٢٧- السابق / ١٧٥ .

١٢٨- تكوين / ٢٢ / ١ - ٧ .

١٢٩- ص / ٢٤ .

١٣٠- الإسراء / ١٠٧ ، ١٠٩ ، ومريم / ٥٨ ، والسجدة / ١٥ .

١٣١- يوسف / ١٠٠ . ويلاحظ أنه عليه السلام قد قال : « جاء بكم من البدو » ، ولم يقل : « جاء بكم من البادية » . ويشبهه قول الواحد من أهل الإسكندرية اليوم : « جئت من الفلاحين » ، يقصد : « رجعت من القرية » .

١٣٢- الكشاف / ٢ / ٣٤٤ .

١٣٣- انظر « روح المعانى » للألوسى / ١٣ / ٥٩ .

١٣٤- يوسف / ١٠١ .

١٣٥- تفسير الطبرى / ١٣ / ٧٣ ، وتفسير الزمخشرى / ٢ / ٣٤٥ ، وتفسير الطبرسى / م ٤ / ح ١٣ / ١٢٣ .

١٣٦- انظر الألوسى / ١٣ / ٦٣ .

١٣٧- يوسف / ١٠٢ .

١٣٨- يوسف / ١١٠ .

١٣٩- يوسف / ١١١ .

١٤٠- آل عمران / ٦٢ ، والأعراف / ٧ ، والكهف / ١٣ مثلا .

١٤١- هذه دعوى د . محمد أحمد خلف الله فى كتابه « الفن القصصى فى القرآن الكريم » / القاهرة / ١٩٦٥ م / ٣١ - ٣٤ .

البناء القصصى فى السورة

مع المقارنة بين طريقتى القصص القرآنى والقصص النبوى

أول ما يلاحظ فى هذا الصدد أن السورة لا تدخل فى القصة دخولا مباشرا ، بل هناك ثلاث آيات قبل ذلك : أولاها تذكر آيات القرآن المبين ، وثانيتها تبرز عروبة القرآن ، وثالثتها تمهد للقصة قائلة إن الله سبحانه يقص على الرسول من خلال الوحى القرآنى أحسن القصص ، وانه عليه السلام كان قبل ذلك يجهل هذه القصة .

وما لاحظناه فى أول السورة قبل بدء القصة من تدخل التعليق الالهى نجده أيضا فى ثناياها بين الحين والآخر . من ذلك أننا ، بعد انتهاء المشهد الأول الذى يحكى فيه يوسف لأبيه عليهما السلام رؤياه ويحذره الأب من أن يقصها على إخوته تجنبا لكيدهم ، نسمعه سبحانه يقول قبل أن ينتقل الكلام إلى المشهد التالى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات السائلين » (١) . وبالمثل نسمع قوله تعالى بعد طلب الذى اشترى يوسف من مصر إلى امرأته أن تكرم مثواه : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ... ❊ ... وكذلك نجزى المحسنين » (٢) . والتعقيب هنا يتم بضمير المتكلم ، الذى هو الله سبحانه . وهو ما تكرر فى الآية ٢٤ تعقيبا على ترك يوسف الهم بامرأة العزيز بناء على رؤيته برهان ربه ، إذ

نقرأ قول رب العزة : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين » ، وكذلك فى الآية ٥٥ والتى بعدها : « وكذلك مكنّا ليوسف فى الأرض ... » . ولعل القارىء قد تبيّن أن التعليقات الثلاث التى وقعت فى ثنايا القصة خاصة بيوسف تبتدىء كلها بقوله تعالى : « وكذلك » ، أى « وعلى هذا النحو فعلنا كذا وكذا بيوسف » (٣) . وفى النهاية نجد التعقيب الأخير المتمثل فى قوله جل شأنه : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ... وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (٤). وهو يناظر التعليق الأوّل على القصة : يناظره فى الموقع ، فقد جاء ذلك فى أول القصة مباشرة ، وجاء هذا بعد انتهائها على الفور . وكذلك يناظره فى المعنى ، إذ تضمَن ذلك التعليقُ الإشارة إلى الوحى القرآنى الذى نزل فقصّ عليه صلى الله عليه وسلم ما لم يكن له به علم من قبل ، وهو ما تضمنه هذا التعقيب أيضا . فهذان التعقيبان يشبهان صدفتى المحارة اللتين تحوطانها من الجانبين وتتناظر إحداهما مع الأخرى فى شكل بديع . وهذه التعليقات الإلهية مما تختلف به القصة القرآنية عن القصص البشرى كما يصطلح عليه معظم الأدباء والنقاد الآن ، إذ يوجبون على القصاص إذا حكى القصة بلسانه هو لا بلسان أحد شخصياتها ألا يشعرنا بوجوده فلا يتدخل فى كلام أحد المتحاورين بتحبيذ أو تخطئة أو يعلّق على أى شىء من حوادث القصة . بيد أن الذى

يحكى القصة القرآنية إنما هو الله سبحانه . وهو ليس كالقصاص البشرى ، الذى لم يخلق أحدًا من شخوصه ولا شيئًا من أحداث قصته ، على عكسه سبحانه ، الذى هو خالق كل شىء ومبدعه بما فيه قصته وقراؤها . وفضلاً عن ذلك فالغرض الدينى والخُلُقى فى القصة القرآنية يتمّ بمثل هذه التعليقات الإلهية ، التى لا تزيد عادة عن آية لا تشغل إلا سطرين على أطول تقدير . والقارىء يتقبل هذه التعليقات بشغف لا يتقبل به تعليقات القصاص البشرى ، إذ يجد فى تدخل هذا نوعًا من الحذلقة والتعالم عليه أو فى أخف الظروف نوعًا من الثرثرة المملّة ، وهو ما لا يطوف له بخاطرٍ فى حالة التعقيب الإلهى .

وخصيصة أخرى نجدها فى قصتنا وفى غيرها من القصص القرآنى . ألا وهى خصيصة الإيجاز الشديد . وهذا الإيجاز متحقق فى عدد الكلمات وفى عدد الأحداث وفى عدد الأشخاص على السواء ، إذ القرآن فى هذا الجانب يكتفى بالأساسيات لا يكاد يزيد عليها . إنه لا يحكى قصصه لشغل الوقت وتسلية القرّاء أو إظهار التفنُّن فى عرضها ، وإنما ليهدى ويرشد . ومن هنا فما لا يحقق هذا الغرض فإنه ينفيه ولا يهتم به .

لنأخذ بعض الأمثلة : إن القصة تبدأ بقوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إنى رأيتُ أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ، رأيتُهم لى

ساجدين » (٥) ، فتدخلنا فى صميم أحداثها وحواراتها على الفور . ولو كانت هذه قصة بشرية لوجدنا الكاتب ينفق صفحات فى الكلام عن يعقوب وزوجته وبنيه وعلاقة يوسف بإخوته والحساسية التى نشأت بينهم وبينه وأسبابها ، وكيف تطورت حتى بلغت ما بلغته فى نهاية الأمر ، وكيف كان يعقوب يحاول أن يعالجها . ولكن القصة القرآنية لم تفعل شيئا من هذا ، بل ولم تقل مثلا : « ذات ليلة رأى يوسف فى منامه حلما هو كذا وكذا ، فاستيقظ من نومه فرحا أو فزعا أو دهشا (على حسب حالته النفسية)، واحتار ماذا يفعل : أيكتم هذه الرؤيا أم يقولها لأهله ؟ وإذا كان ينبغى أن يقولها لأهله فلمن منهم يا ترى : ألأبيه أم لأمه أم لأحد إخوته ؟ وبعد تفكير عميق وتردد طويل قرر أن يبوح بما رآه لأبيه ويأخذ رأيه فيما إذا كان يرى من بأس بحكايتها لإخوته أو لا » ... وهكذا مما نفعله إذا أمسكنا القلم ورحنا نقص قصة ، قصيرة كانت أم طويلة .

وهذا الحذف يتكرر عند الانتقال من مشهد إلى مشهد . إن يوسف بعد أن يلقى به إخوته فى الجب تمرّ قافلة فتنتشله وتأخذه لتبيعه رقيقا . وهنا يسكت القرآن فلا يذكر مشهد البيع ولا مشهد الانتقال إلى بيت المالك الذى اشتراه ، بل نفتح أعيننا بعد ذلك مباشرة على ذلك الشارى ، الذى نعرف أنه من مصر ، يوصى امرأته بمعاملة يوسف معاملة كريمة . ثم يبدأ مشهد المراودة التى لابد أن يكون قد سبقها أشياء وأشياء ، ولكن

القرآن يطوى ذلك كله طيًا ليعرض علينا فجأة امرأة العزيز وهى فى قمة سعارها الشهوانى الذى أفقدها عقلها تماما . وحتى هنا يعبر القرآن فوق عشرات التفاصيل التى يقف القصاص البشرى عندها ويجعلها وكده الأول ، متتبعا الحركات واللفتات والنظرات والهمسات والكلمات والانفعالات والخطرات والحيرة بين الإقدام والإحجام ، والتذبذب بين صراخ الرغبة العمياء المجنونة والاعتبارات الاجتماعية والخلقية ، وانتهاء هذا كله بانهيار الحواجز والسدود وانجراف امرأة العزيز أمام سيل غريزتها العارم . ليس ذلك فحسب ، فإن القرآن الكريم لا يذكر لنا مما قالته ليوسف فى تلك الخلوة الشيطانية التى دبّرتها وحاولت بها أن تأخذ عليه طريق الفرار والتمنّع إلا كلمة واحدة هى : « هَيْتَ لك » . إن هذا الإيجاز لهو قمة البلاغة حقًا . إن القرآن بهذه الألفاظ القلائل يقول ما لا تكفى القصاص البشرى فيه عشرات الصفحات وآلاف الكلمات ، كما هو الوضع مثلاً فى أعمال ديفيد لورنس وجوستاف فلوبير واميل زولا واحسان عبد القدوس . وهذا الإيجاز هو الذى كفل أن تحكى حياة يوسف كلها تقريبا فى صحفات معدودات ليس إلاّ ، وهى فى القصص البشرية لا يجزئها إلا المئات منها . وقد صاغها توماس مان ، الروائى الألمانى ، فى رواية (٦) بلغت صفحاتها بضع مئات فعلا .

وهذا الاقتصاد المعجز نراه فى تراكيب الجمل . انظر مثلاً قوله

تعالى : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ،وغلَّقت الأبواب وقالت : هيْت لك . قال : معاذ الله ! ... » (٧) . إن « الواو » في « وغلّقت الأبواب » تعني أنها كانت قد غلّقت الأبواب من قبل ، ولكن القرآن يكتفي بهذه الواو . وحين يرد يوسف عليها لا يقول مثلاً : « ما هذا الذي تقولين يا سيدتي ؟ إنني لا أصدق أذني . إن ما تفعلينه لا يليق بسيدة مثلك ذات منصب وعزة في قومها ولها زوج جليل محترم . وأنا أخاف الله المطلع على كل شيء والذي سيحاسبنا على كل شيء ، وأحترم سيدي وأصونه في غيبته ، وبخاصة أنني لم أر منه إلا كل خير ومعروف . وهذا الذي تدعينني إليه ظلم ، والظلم ينقلب على الظالمين فلا يفلحون أبدا » . لا ، لم يقل يوسف هذا ، ويمكن إضافة كثير مثله إليه ، بل كل ما قال هو هذه الكلمات القلائل : « معاذ الله ! إنه ربي ، أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون » ، معبّرا بها عن كل هذا الذي قلناه من نفوره من ذلك الجرم ، وخوفه من الله واحترامه ووفائه لسيده ، وتذكيره لسيدته بمرتع الظلم الوخيم .

ومن هذا الاقتصاد العجيب أنك لو ذهبت تتتبع الروابط التي تصل الجمل والعبارات بعضها ببعض فلن تجد في معظم الحالات إلا « الواو » ، وأحيانا « الفاء » ، وهما أبسط أدوات الربط ، أو لا تجد أي رابط على الإطلاق ، ولنأخذ النص التالي مثالا : « واستبقا الباب ،

وقدت قميصه من دُبر ، وألفيا سيدها لدى الباب . قالت : ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يُسجن او عذاب ألم * قال : هى راودتنى عن نفسى . وشهد شاهد من أهلها : ... * فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبر قال : إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم * يوسف ، أعرض عن هذا . واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » (٨) . ولو فتشته لوجدت « الواو » فقط هى التى استعملت فى ربط بعض جمله ، وبعضها الآخر قد ترك دون رابط . ومع ذلك فأنت تشعر بأن الجمل متماسكة تماسكا متينا محكما . ولقد سبق أن قلت ، فى ردى على المستشرق الفرنسى ريجى بلاشير فى بعض دعاواه على أسلوب القرآن فى ترجمته له إلى الفرنسية (٩) ، إن جمل القرآن الكريم يمكن تشبيهها من باب التقريب بحجارة الأهرام ، التى يذكر علماء الآثار أنها ملتصقة ببعضها البعض التصاقا جبارا دون أن تكون هناك مادة لا صقة بينها .

وهذا الاقتصاد وهذه البساطة نجدهما أيضا فى الحوار . ومن مظاهر ذلك أن الفعل الذى يُقدَّم به للحوار هو عادة الفعل « قال » وحده . وقد استخدم بدلا منه الفعل « شهد » مرة (الآية / ٢٦) ، والفعل « أذّن » مرة أخرى (الآية / ٧٠) . كما لوّن الفعل « قال » مرة واحدة ، وذلك فى قوله تعالى : « وجاؤا أباهم عشاء يبكون * قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ... » (١٠) ، إذ اقترن به البكاء .

ومن مظاهره أيضا فى حالة الحوار عدم ذكر اسم المتكلم إلا فى حالات قليلة ، إذ القاعدة هى الاكتفاء بـ « قال » أو « قالوا » أو « قال واحد منهم » أو « شهد شاهد » أو « أذن مؤذن » وما إلى ذلك . وقد يُساق الحوار دون التقديم له بفعل القول أو ما يشبهه ، كما فى كلام الساقى حين ذهب إلى يوسف فى السجن يستفتيه فى تأويل رؤيا الملك ، إذ نسمعه يقول على الفور : « يوسف أيها الصِّدّيق ، أفتنا فى سبع بقرات سمان ... » (١١) ، وكما فى دعاء يوسف عليه السلام فى آخر السورة لربه (١٢) ، إذ لم تقل الآية مثلا : « ودعا يوسف ربه : ... » ، بل ورد الدعاء دون أى تمهيد ، رغم أن يوسف كان يخاطب أهله قبل ذلك مباشرة ، فانتقل الكلام من خطابهم إلى دعاء ربّه على نحو انسيابى دون أن يشعر القارىء بهذا الانتقال .

كذلك ليس فى كلام المتحاورين نفسه إطناب أو إسهاب ، بل الإقلال (وأحيانا الاكتفاء بالإشارة) هو الاتجاه العام .

والسّرد فى القصة قليل جدا بالنسبة للحوار . وهو حين يرد يجىء فى كلمات قلائل ، مثل : « وجاءوا أباهم عشاء يبكون * قالوا : ... » (١٣) ، « وجاءوا على قميصه بدم كذب . قال : ... » (١٤) ، « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه . قال : ... » (١٥) ، « واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبُر وألفيا

سيدها لدى الباب . قالت : ... » (١٦) ، « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال : ... » (١٧) ، « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال : ... » (١٨) ، « ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سُجَّدا وقال : ... » (١٩) .

وإذا كان السّرد قليلاً جدا فى القصة بالنسبة للحوار فإن الوصف فيها منعدم أو يكاد . ومن هنا فلا كلام عن البيئة التى تربى فيها يوسف ولا عن بيته ولا عن الصحراء التى كان إخوته يرعون فيها . وحتى الجبّ الذى أُلقى فيه لا نجد شيئا يصف موضعه ولا عمقه ولا ظلمته ولا مخاوف يوسف عندما رُمى به فيه . وبالمثل لا كلام عن قصر العزيز ولا عن المخدع الذى غلّقت امرأته أبوابه عليها وعلى فتاها ، ولا عن الستائر أو السرير أو الثياب التى ارتدتها لغرضها الآثم ، ولا الكحل والأصباغ التى زوّقت بها وجهها وشفتيها . ولا كلام كذلك فى وصف الملابس التى كان يلبسها يوسف فى منصبه الذى تبوّأه بعد خروجه من السجن أو فى وصف العرش الذى أجلس عليه أبويه ، مما تجد شيئا منه فى كتب التفاسير .

إن القرآن لا يهدف إلى إثارة الخيال ولا إلى شَدْه القارىء وإسالة لعابه . لا ، بل هدفه هو أن يهديه ويوجّهه . والقاعدتان اللتان يجرى عليهما هما : « خير الكلام ما قلّ ودلّ » و « السهل الممتنع » ، مع فحولة فى الصياغة وجلالٍ وسموّ ورهبة .

هذا ، وأحب أن أختم هذا الفصل بذكر بعض الاختلافات فى طريقة القصّ القرآنى والقصّ النبوى ، وهو من الدلائل على أن أسلوب القرآن غير أسلوب الحديث ، ومن ثم على أن مصدر هذا غير مصدر ذاك ، ولا معنى إذن لادعاء المدّعين أن القرآن هو من عند الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأول ما نلاحظه من ذلك طريقة افتتاح القصة . فالقرآن قد يستهل قصصه بعبارة : « واتل عليهم نبأ ... » (٢٠) . وقد يستلها بقوله : « هل أتاك حديث / نبأ ... ؟ » (٢١) أو « ألم يأتهم / يأتكم نبأ الذين ... » (٢٢) . أو يستلها بـ « ألم تر إلى / كيف ... » (٢٣) ، أو بقوله تعالى : « واذكر فى (الكتاب) فلانا ... » (٢٤) . كما استُهلّ عدد من القصص القرآنية بالإشارة إلى سؤال وُجّه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو أمر هو بتوجيهه إلى معارضيه عن موضوع من الموضوعات (هكذا مثلاً : « ويسألونك عن ... » و « واسألهم ... ») (٢٥) . وليس شىء من هذا موجودا فى القصص النبوى .

كذلك فكلمة « إذْ » تأتى فى أوائل كثير من القصص القرآنى (٢٦) ، وهذا أيضا شىء لا يعرفه القصص النبوى . وقد تتكرر « إذْ » هذه مع كل حدث أو مرحلة هامة فى القصة القرآنية ، كما فى قصة بنى إسرائيل فى سورة « البقرة » (٢٧) ، وكما فى قصة إبراهيم

وإسماعيل عليهما السلام فى نفس السورة أيضا (٢٨) .

أما قصص الحديث النبوى فنجد فى بداية كثير منها عبارة مثل « كان فيمن قبلكم » ، وذلك كما فى الشواهد التالية : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه » (٢٩) ، « كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا » (٣٠) ، « حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء » (٣١) . وقد تبتدىء القصة النبوية بكلمة « بينما » : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ... » (٣٢) ، « بينما رجل وامرأة له فى السلف الخالى ... » (٣٣) ، « بينا راع فى غنمه عدا عليه الذئب ... » (٣٤) .

ومما يفرق بين القصص القرآنى وقصص الحديث الشريف أيضا أن القرآن أحيانا ما يختم قصصه بمثل قوله تعالى : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » أو « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق » (٣٥) أو بعبارة شبيهة . وهو شيء لا تعرفه القصص النبوية .

وكذلك ففى الوقت الذى لا توجد فيه قصة كاملة لأى نبى فى الحديث النبوى الشريف نجد ذلك قد تكرر فى القرآن . وهو من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى استشهاد .

ومثل ذلك أيضا توالى عدة قصص وراء بعضها البعض فى القرآن

وانعدام ذلك فى أحاديث الرسول عليه السلام .

وقد ساقت لنا الأحاديث النبوية الكريمة طائفة من القصص لم ترد فى القرآن بل ولا تشبه قصصه ، كقصة أبى زرع وأم زرع ، وقصة الأقرع والأعمى والأبرص ، وقصة الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسا ثم أكملهم مائة .

وأحيانا ما يحكى الرسول عليه السلام ما سيحدث له مع بعض الأنبياء أو بعض أصحابه فى الآخرة ، كما فى حديثه عن الصعقة التى تأخذ الناس يوم القيامة والتى حينما أفاق هو منها وجد موسى عليه السلام باطشا بجوار العرش (٣٦) ، وكما فى كلامه صلى الله عليه وسلم عن استشفاع الخلق ببعض من سبقه من الأنبياء وانتهاء الأمر بقيامه هو بالشفاعة المطلوبة (٣٧) ، وحديثه عن رؤيته قَصْر عمر فى الجنة وابتعاده عنه صلى الله عليه وسلم لما يعرفه من غيرة عمر رضى الله عنه (٣٨) .

وكثيرا ما يروى القرآن الكريم قصص يوم القيامة بصيغة الماضى أو المضارع (٣٩) ، وهو أمر لا يوجد فى الأحاديث المشرّفة .

ومن سمات القصص القرآنى التى ينفرد بها أيضا عن القصص النبوى الفجواتُ التى تقفز بها القصة فوق فترة زمنية قد تطول وقد تقصر أو فوق بعض المشاهد ... إلخ . وقد التفت القدماء إلى ذلك ودرسوه ضمن مبحث

« الإيجاز » من علم البلاغة . ومن هؤلاء السيوطى ، الذى أدرجه تحت قسم « حذف جمل كثيرة » (٤٠) . أما سيد قطب فقد درس هذه الظاهرة كسمة فنية من سمات القصص القرآنى . وهو الذى أطلق عليها مصطلح « الفجوات » (٤١) .

وقد أشار المستشرق الشهير آرثر آربرى (فى المقدمة التى كتبها لترجمته الإنجليزية للقرآن والتى يحس فيها المرء بنفحات غامضة من الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم أو شىء شبيه بذلك) إلى ما فى قصة يوسف من فجوات من هذا النوع ، وعزاها إلى أن القصة لابد أنها كانت مألوفة للسامعين وأنها إنما تُليت عليهم كنوع من التذكير لهم بأن الله ينجى رسله المخلصين (٤٢) . بيد أن هذا التفسير يخالف ما جاء فى أول القصة وآخرها من أن الرسول عليه السلام لم يكن يعرف شيئا عنها من قبل . أما سيد قطب فيرى أن هذه الفجوات قد تُركت ليستمتع الخيال بملئها وإقامة القنطرة بين ما سبقها وما تلاها من مشاهد (٤٣) ، على حين يقول د . أحمد أحمد بدوى إن القرآن فى هذه المسألة يعتمد على ذكاء القارىء ومعاونة السياق له (٤٤) . والحقيقة أن القرآن ، فيما هو واضح من أحداث القصص التى يرويها ، لا يهتم إلا بموضع العبرة من حدث أو موقف أو حوار . ومن هنا فإنه لا يذكر كل شىء .

وثمة سمة أخرى فارقة بين القصص القرآنى وقصص الحديث هى

الفواصل السجعية التى توجد فى الأول ولا وجود لها فى الثانى . وهذا من المتعارف المشهور .

فإذا جئنا إلى طريقة تقديم الحوار لاحظنا أن القرآن كثيرا ما ينتقل من السَّرد أو الوصف إلى إيراد عبارات الحوار مباشرة من غير أن يمهد لها بـ « قـال » أو « نـادى » مثـلاً ، وذلك كقوله تعالى عن بنى إسرائيل : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة وظنّوا أنه واقعٌ بهم : خذوا ما آتيناكم بقوة » (٤٥) ، وقوله سبحانه عن عذاب الكفار فى الجحيم : « كلما أرادوا أن يخرجـو منهـا مـن غمٍّ أُعيـدوا فيهـا و : ذوقـوا عذاب الحريق » (٤٦) ، وقوله جل جلاله عن موسى عليه السلام : « فلمّا رآها تهتز كأنها جانٌّ ولّى مدبرا ولم يعقّبْ : يا موسى ، لا تخف . إنى لا يخاف لدىَّ المُرْسَلون » (٤٧) .

وقد درس الزركشى هذه السمـة فى باب « الحذف » تحت عنوان « حذف القول » (٤٨) ، ولكنه لم يفعل أكثر من إيراد الشواهد عليها . والحق أن فى هذه الطريقة مفاجأة وإدهاشا بسبب تغير مجرى الكلام فجأة من السرد إلى الحوار ، واستعمال الكلام المباشر (direct speech) فى موضع الكلام غير المباشر (indirect speech) . كما أنها تضفى على الأسلوب طزاجةً وجزالة بما تستغنى عنه من الروابط الكلامية والتمهيدات الحوارية ، وبما تصل بينه من متباعدات وصلاً رشيقا مرنا .

الهوامش

١- الآية / ٧ .

٢- الآيتان / ٢١ - ٢٢ .

٣- هناك تعليق آخر خاص بيعقوب عليه السلام (في الآية ٦٨) لا يبتدىء بـ « وكذلك » ، بل يجرى هكذا : « وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

٤- الآية / ١٠٢ .

٥- الآية / ٤ .

٦- عنوانها « يوسف واخوته » . ولست أعرف هل تُرجمتْ إلى العربية أوْ لا .

٧- الآية / ٢٣ .

٨- الآية / ٢٥ - ٢٩ .

٩- وذلك فى الفصل الثالث من الباب الأول من كتابى « المستشرقون والقرآن » ، وهو الفصل الذى خصَصتُه لدراسة تلك الترجمة ومناقشة ما فيها من مزاعم ضد القرآن . وقد عبث بلاشير بالآيات القرآنية الكريمة فى عدد من المواضع وقدم فيها وأخر ، وملأ هوامشه بملاحظات خطأ فيها أسلوب القرآن وادّعى عليه الادعاءات الباطلة . ومع ذلك يثنى عليها بعض المسلمين ، مثل د . عبدالرحمن بدوى (موسوعة المستشرقين / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٢ / ١٩٨٩ م / ٨٣) ، الذى رددتُ عليه فى كتابى « من ذخائر المكتبة العربية » (١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م / ٢٨٥ - ٢٨٦) ، ود . صبحى الصالح (مباحث فى علوم القرآن / دار العلم للملايين / بيروت / ط ١٦ / ١٩٨٥ م / ١٧٧) .

١٠- الآيتان / ١٦ - ١٧ .

١١- الآية / ٤٦ .

١٢- الآية / ١٠١ .

١٣- الآية / ١٦ .

١٤- الآية / ١٠٨ .

١٥- الآية / ١٩ .

١٦- الآية / ٢٥ .

١٧- الآية / ٩٦ .

١٨- الآية / ٩٩ .

١٩- الآية / ١٠٠ .

٢٠- المائدة / ١٢٧ ، والأعراف / ١٧٥ ، ويوسف / ٧١ .

٢١- كما في الكهف / ٣٢ ، ويس / ١٣ ، وطه / ٩ - ١٠ ، والذاريات / ٢٤ - ٢٥ ، والنازعات / ١٥ - ١٦ ، وص / ٢١ .

٢٢- انظر التوبة / ٧٠ ، وابراهيم / ٩ ، والتغابن / ٥ .

٢٣- البقرة / ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، والفجر / ٦ ، والفيل / ١ .

٢٤- مريم / ١٦ ، ٥٤ ، والأحقاف / ٢١

٢٥- الكهف / ٨٣ ، وطه / ١٠٥ ، والأعراف / ١٦٣ ، والإسراء / ١٠١ ، والمعارج / ١ .

٢٦- كما في البقرة / ٣٠ ، ١٢٤ ، وآل عمران / ٣٥ ، والمائدة / ١١٠ ، والكهف / ٦٠ ، والنمل / ٧ .

٢٧- الآيات ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٩٣ .

٢٨- الآيات / ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .

٢٩- رياض الصالحين / حديث رقم ١٢ .

٣٠- رياض الصالحين / حديث رقم ٢٠ .

٣١- رياض الصالحين / حديث رقم ١٣٧١ .

٣٢- رياض الصالحين / حديث رقم ١٢٦ .

٣٣- مسند ابن حنبل / ٢ / ٤٢١ .

٣٤- البخاري / فضائل الصحابة / ٥ ، ٦ ، ومسلم / فضائل الصحابة / ١٣ ، وابن حنبل /

٢ / ٣٠٦

٣٥- كما فى آل عمران / ٤٤ ، وهود ٤٩ ، ١٠٠ ، ويوسف / ١٠٢ ، وطه / ٩٩ .

٣٦- البخارى / رقاق / ٤٣ ، ومسلم / فضائل / ١٦٠ ، وأبو داود / سنة / ١٨ .

٣٧- رياض الصالحين / حديث رقم ٢٠١ ، ١٨٦٦ .

٣٨- البخارى / نكاح / ١٠٧ ، ومسلم / جنة / ٥٨ ، والترمذى / قيامة / ٣ .

٣٩- انظر المائدة / ١١٦ ، والنمل / ٨٧ - ٨٨ ، والزمر / ٦٨ - ٦٩ ، ٧٥ مثلا .

٤٠- انظر كتابه « الاتقان » / ٢ / ٨٣ .

٤١- انظر كتابه « التصوير الفنى فى القرآن » / دار الشروق / ط ٧ / ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م /

١٨٧ .

42- Arthur J. Arberry , The Koran Interpreted , Oxford University Press , 1975 , p. XI

٤٣- انظر « التصوير الفنى فى القرآن » / ١٨٧ - ١٨٨ .

٤٤- انظر كتابه « من بلاغة القرآن » / ١٢٧ .

٤٥- الأعراف / ١٧١ .

٤٦- الحج / ٢٢ .

٤٧- النمل / ١٠ .

٤٨- انظر كتابه « البرهان فى علوم القرآن » / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / مكتبة دار التراث /٣/ ١٩٦ - ١٩٨ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

د. إبراهيم عوض / عشر لآلىء من جواهر السنة النبوية / مركز الشرق العربى / الطائف .

د. إبراهيم عوض / المستشرقون والقرآن / دار الحقوق / القاهرة .

د. إبراهيم عوض / من ذخائر المكتبة العربية / ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

الإمام أحمد ابن حنبل / مسند ابن حنبل .

أحمد مصطفى المراغى / تفسير المراغى / دار إحياء التراث العربى / بيروت / ط ٢ / ١٩٨٥م .

الألوسى / روح المعانى / دار إحياء التراث العربى / بيروت .

الإمام البخارى / صحيح البخارى .

الزركشى / البرهان فى علوم القرآن / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / مكتبة دار التراث .

الزمخشرى / الكشّاف / دار الفكر / بيروت / ط ١ / ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

سيد قطب / التصوير الفنى فى القرآن / دار الشروق / ط ٧ / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

سيد قطب / فى ظلال القرآن / دار الشروق / بيروت / ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

السيوطى / الإتقان فى علوم القرآن / دار الفكر / بيروت / ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

د. صبحى الصالح / مباحث فى علوم القرآن / دار العلم للملايين / بيروت / ط ١٦ / ١٩٨٥م .

الطبرسى / مجمع البيان فى تفسير القرآن / دار مكتبة الحياة / بيروت .

د. عبد الرحمن بدوى / موسوعة المستشرقين / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٢ / ١٩٨٩م .

عبد الكريم الخطيب / قصتا آدم ويوسف عليهما السلام / دار الفكر العربى .

الكتاب المقدس / دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط .

د . محمد أحمد خلف الله / الفن القصصى فى القرآن الكريم / القاهرة / ١٩٦٥م .

د . محمد البهى / تفسير سورة يوسف / مكتبة وهبة / القاهرة / ط ١ / ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

د . محمد حسن باجودة / الوحدة الموضوعية فى سورة يوسف عليه السلام / مطبوعات تهامة / جدة / ط ٢ / ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

محمد الطاهر بن عاشور / تفسير التحرير والتنوير / الشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر .

محمد فؤاد عبد الباقى / المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

د . محمد محمود حجازى / التفسير الواضح / مطبعة الاستقلال / ط ٤ / ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

الإمام مسلم / صحيح مسلم .

مناع القطان / مباحث فى علوم القرآن / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ٩ / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الإمام النووى / رياض الصالحين .

A. Yusuf Ali , The Holy Quran (Text , Translation and Commentary) , Dar Al-Arabia , Beirut .

Arthur J. Arberry , The Koran Interpreted , Oxford University Press , 1975 .

Muhammad Hamidullah , Le Saint Coran . 8ème ed., Beyrouth , 1973 .

Muhammad Marmaduke Pickthall , The Meaning of the Glorious Koran , Mentor Book , New York .

S. Abul A'la Maududi , The Meaning of the Quran , Islamic Publications Ltd., Lahore . 3rd ed. . 1980 .

الفهرس

دار النهضة العربية
٣٢ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة